جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمكة المكرمة في عامي ١٢٠١-١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧-١٧٨٨م

من خلال "الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية" للمراد آبادي

د. هشام فوزي عبدالعزيز
قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة طيبة

مكة المكرمة هي المدينة الأولى في الإسلام؛ ففيها نشأ الإسلام وبرز، وفيها المشاعر المقدسة، فهي قبلة المسلمين؛ لذا فقد لقيت المدينة اهتمامًا بالغًا من قبل المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، بما في ذلك الهند، حيث إن المسلمين فيها يتطلعون بشوق لزيارتها لأداء مناسك الحج والعمرة فيها، أو الإقامة هناك. وكان من بين الذين زاروها وأقاموا فيها، الرحالة رفيع الدين المراد آبادي[١]، الذي دوَّن رحلته

(قدم للنشر في ١٤٣٢/١١/٢١هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٣/٧/٢٧هـ).

(١) رفيع الدين المراد آبادي، **الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية** (١٢٠١هـ/ ١٧٨٩م)، ترجمة سمير عبدالحميد إبراهيم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

عن الحجاز التي أقام فيها لمدة تقرب من السنتين، فوصف الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية هناك.

وتأتي أهمية هذا البحث لجملة من العوامل، هي: أن البحث خصص لتناول تاريخ مكة المكرمة، المدينة الأولى من حيث الأهمية الدينية عند المسلمين، فهو يتناول المدينة المقدسة. كما أنه في حدود علم الباحث، لم يدرس في دراسة علمية مستقلة؛ ومن ثم فإنه يعد بكرًا، ولم يطرقه من قبل أي باحث. كما أن الرحلات الهندية إلى الجزيرة العربية عامة، والحرمين خاصة، في التاريخ الحديث والمعاصر، لم تلق العناية والاهتمام من قبل الباحثين، على الرغم من وجود ما يقرب من مائتي رحلة آنذاك، كتبت باللغتين الأردية والفارسية، إذ إن تلك الرحلات تحتاج إلى فرق متخصصة وجهود جبارة لترجمتها ودراستها وتحليلها. ويمكن لهذه الرحلات أن تقدم إضاءات جديدة عن أوضاع الحرمين الشريفين، وخاصة مكة المكرمة(٢)، من أجل استكمال الصورة التي رسمتها الرحلات الغربية عن المنطقة، وتصحيحها(٣).

(٢) جلال السعيد الحفناوي، "**الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية في الأدب الأردي**"، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية: بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤- ٢٧ رجب ١٤٢١هـ، الموافق ٢١- ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م، ط١، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص٨٤٧-٨٤٨؛ أحمد علي خان، **وصف رحالة الهند وباكستان للجزيرة العربية: مصدر مهمل من مصادر التاريخ للجزيرة العربية، في: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج٢، ص٨٩٤.

(٣) عن الرحلات الغربية إلى الجزيرة العربية، انظر: روبن بدول، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة عبدالله آدم نصيف، =

وتعد رحلة المراد آبادي، من أهم الرحلات الهندية إلى الجزيرة العربية، التي ألفت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي؛ فهي قد كتبت قبل نحو قرنين وربع القرن، وتمثل نموذجًا للرحلات التي كتبت باللغة الفارسية، فثمة أسباب وراء ذلك، أنها اللغة الأولى في الهند، إذ كانت لها مكانتها بين العلماء والمثقفين وتتمتع باحترامهم؛ لذلك، فإن الرحالة الذين ارتحلوا إلى الجزيرة العربية في الفترة من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حتى القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، كانت لديهم قدرة ومهارة للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم باللغة الفارسية أكثر من اللغة الأردية، التي كانت لغة العامة(٤)؛ ولأنها قد كتبت من قبل رحالة مسلم متضلع بالعلوم الشرعية، يتقن اللغات: العربية، والفارسية، والأردية، وقد احتوت الرحلة على معلومات قيمة ودقيقة، لا غنى للباحث في تاريخ مكة المكرمة في فترة الرحلة الاستغناء عنها؛ فمن هنا جاءت هذه الدراسة للوقوف على هذه الرحلة ودراستها.

= ط١، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م؛ أغسطس رالي، **مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى**، ترجمة حسن سعيد غزالة، ط١، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٥-٦؛ سمير عبدالحميد نوح، **الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي**، ط١، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١١٢-١١٣.

أولاً: الرحالة والرحلة

أظهر مسلمو الهند، شأنهم في ذلك شأن بقية إخوانهم من المسلمين في أنحاء العالم، اهتمامًا واضحًا بالحرمين الشريفين، منذ فترات مبكرة من التاريخ الإسلامي، وإن تجلى ذلك بصورة واضحة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فصاعدًا. وقد تجسد ذلك الاهتمام بأشكال مختلفة، من بينها: أداء مناسك الحج والعمرة، وإرسال الهدايا والأموال للإنفاق على الأماكن المقدسة، والقائمين على أمورها، وعلى الفقراء فيها(٥)، إضافة إلى العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين الهند والحجاز(٦).

ويهمنا من تلك المواضيع رحلات الحج إلى الحجاز، وخاصة أولئك الذين دونوا رحلاتهم، ومن أقدمها في فترة التأريخ الحديث (٩٢٣-١٣٣٢هـ/ ١٥١٧-١٩١٤م)، رحلة

(٥) عن الدعم المالي والهدايا من الهند وحجاجهم في فترة القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. انظر: ثريا فاروقي، **حجاج وسلاطين: الحج أيام العثمانيين**، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، ط١، بغداد- بيروت، منشورات الجمل، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢١٧- ٢٢٢، ٢٥٩- ٢٦٤؛ لمياء أحمد شافعي، حياة الوزير الكجراتي الهندي آصف خان بمكة المكرمة ٩٤٢- ٩٥٥هـ/ ١٥٣٥- ١٥٤٨م، **مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية**، ع٤٨، ج٢، ذو الحجة ١٤٣٠هـ/ ديسمبر ٢٠٠٩م، ص٧٨٤- ٧٩٥.

(٦) عن العلاقات التجارية بين الهند والحجاز في فترة القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. انظر: رائد علي هاشم، **تاريخ الصلات بين الحجاز والهند**، ط١، إربد، المؤلف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٠٢-١٤٤.

عبدالحق محدث الدهلوي، المعنونة بـ "جذب القلوب إلى ديار المحبوب"، حيث زار الحرمين الشريفين عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨١م[٧]. كما أن محمد معصوم قام برحلة إلى الحج في الفترة بين عامي ١٠٦٧-١٠٦٩هـ/ ١٦٥٦- ١٦٥٨م، وقد دونها تحت عنوان: "يواقيت الحرمين". وقد وصف فيها طريق الرحلة التي بدأت من الهند إلى اليمن، ثم التركيز على الحجاز، من خلال التطرق إلى أوضاعه الدينية والسياسية والاجتماعية[٨]. وقام شاه ولي الله الدهلوي برحلة إلى الحرمين عام ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م، ودونها في رحلته المسماة "فيوض الحرمين"[٩]، عرض فيها بعض المسائل الفقهية والأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، التي لها علاقة بموضوع الحج، والحرمين الشريفين بطريقة علمية بحتة[١٠].

وبعد تلك الرحلات جاءت رحلة رفيع الدين بن فريد الدين المراد آبادي إلى الحجاز بين عامي ١٢٠١-١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧-

(٧) الحفناوي، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٥٢؛ جلال السعيد الحفناوي، **رحلات الحج الهندية إلى مكة المكرمة وأثرها على مسلمي شبه القارة الهندية**، الأبحاث المقدمة إلى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، المنعقدة في رحاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة خلال الفترة من ١٣- ١٥/ ٨/ ١٤٢٦هـ، الموافق ١٧- ١٩/ ٩/ ٢٠٠٥م، المحور التاسع (الرحلات وأثرها في العالم الإسلامي)، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ص١١٦.

(٨) الحفناوي، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٥٣؛ نوح، **الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي**، ص٤٨٠-٤٨١.

(٩) الحفناوي، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٥٣.

(١٠) الحفناوي، **رحلات الحج الهندية إلى مكة**، ص١١٧.

١٧٨٨م. وقبل الخوض في تفاصيل الرحلة، ينبغي إعطاء لمحة موجزة عن حياته؛ فلقد ولد في الهند عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م، ودرس العلوم الشرعية على يدي بعض العلماء في الهند؛ أمثال العالم المعروف شاه ولي الله الدهلوي(١١)، والشيخ خير الدين السورتي(١٢)، اللذين أفاد منهما في مجال العلوم الشرعية عامة، وعلم الحديث خاصة. وبعد أن أكمل تعليمه الديني، أخذ يعمل في مجال العلوم الشرعية، من تدريس وتأليف، ففي المجال الأخير ألف عددًا من الكتب ذات الطابع الديني، منها: "سلوى الكئيب بذكر الحبيب"، وخصصه للسيرة النبوية، و"شرح الأربعين". وهو في شرح الأربعين حديثًا، وغيرها من الكتب(١٣). وكانت وفاة المراد آبادي عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٩م، أي بعد عودته من رحلته إلى الحرمين

(١١) شاه ولي الله الدهلوي: يعد من كبار العلماء والمحدثين في شبه القارة الهندية في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، أسس مدرسة خاصة به في مدينة دلهي، كانت تعد من أهم المدارس التعليمية التي ظهرت في تلك المنطقة؛ لتطور علومها، وأساليب التدريس فيها. انظر: أحمد الجوارنة، **الهند في ظل السيادة الإسلامية: دراسات تاريخية**، ط١، إربد، حمادة للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٢.

(١٢) خير الدين السورتي: أحد كبار علماء الحديث في الهند، ويعود في نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، سافر إلى الحرمين الشريفين أكثر من مرة، درس الحديث النبوي لمدة نصف قرن، فتخرج على يديه نخبة من علماء الهند. كما كانت له مكانة مرموقة عند مسلمي الهند، وأشراف مكة المكرمة. انظر: المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٢٢-٢٣.

(١٣) نوح، **الجزيرة العربية في الأدب الأردي**، ص١١٣؛ سمير عبدالحميد إبراهيم، **مقدمة الرحلة الهندية**، ص٦-٧.

الشريفين بعشرين عامًا، وعن عمر ناهز التاسعة والثمانين[١٤].

وبالإضافة إلى العلوم الشرعية، فإن المراد آبادي، أجاد بعض اللغات، من أبرزها: الأردية، والفارسية، واللغة العربية؛ ففي الأخيرة، كان على معرفة جيدة بالنحو والشعر؛ إضافة إلى معرفة بالقضايا التاريخية المتعلقة بالحرمين الشريفين عامة، ومكة المكرمة خاصة[١٥].

يتضح مما سبق، بأن المراد آبادي كان على درجة علمية حسنة في مجالات مختلفة لعل من أبرزها: العلوم الشرعية، واللغات، والتاريخ؛ الأمر الذي أهله لتقديم معلومات اجتماعية واقتصادية قيمة عن مكة المكرمة، موضوع البحث.

أما الرحلة التي قام بها المراد آبادي إلى الحرمين الشريفين، فقد ورد على نسخ مخطوطاتها مسميات عدة؛ نظرًا لتعددها، وكتابتها بلغتين، هما: الفارسية، والأردية؛ ومن هذه التسميات: "مشاهدات حرمين"، و"سوانح حرمين شريفين"، و"آداب الحرمين"، و"مشاهدات حرمين شريفين"[١٦]، و"مسير حرمين"، و"حالات حرمين"[١٧].

(١٤) علي خان، **وصف رحالة الهند**، ص٨٩٩؛ إبراهيم، **مقدمة الرحلة الهندية**، ص٧.

(١٥) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٦٩-٧٠، ٧٥.

(١٦) إبراهيم، **مقدمة الرحلة الهندية**، ص٧؛ علي خان، **وصف رحالة الهند**، ص٨٩٩.

(١٧) محمد علي هادي، أضواء على الرحلات الفارسية القديمة إلى الديار المقدسة، **العرب**، ج١-٢، س٣٢، رجب- شعبان ١٤١٧هـ/ نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٦م، ص٣٠.

أما تسمية الترجمة العربية للرحلة، فإن المترجم سمير عبدالحميد إبراهيم، سماها في مقدمته للترجمة العربية "الرحلة الهندية إلى الأراضي الحجازية"[١٨]، فيما كان الغلاف الخارجي والداخلي للرحلة، قد عنون بـ "الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية"، وربما أن المترجم قد أخطأ في ذكر تسميتين للرحلة، والعنوان الذي يعتمد في هذه الحالة، عنوان الغلاف الخارجي لها، وليس العنوان الذي ورد في المقدمة.

وتعددت دوافع المراد آبادي للارتحال إلى الحرمين الشريفين؛ لعل في مقدمتها الدوافع الدينية منها، والمتمثلة برغبته في أداء فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام، وزيارة المسجد النبوي، والتكفير عن ذنوبه[١٩]. ناهيك عن رغبته في الالتقاء بعلماء الحرمين الشريفين في مجال العلوم الشرعية عامة، وعلوم الحديث خاصة للاستزادة من علمهم[٢٠]. كما أنه أراد أن تكون رحلته: "ذكرى من العبدالفقير، ومنفعة باقية للقراء على ما فيها من نزر يسير؛ وحتى تكون سببًا في بث الشوق في قلوبهم لزيارة الحرمين الشريفين زادهما الله شرفًا وتعظيمًا؛ وحتى تذكرني هذه الصفحات بما كنت عليه من حال في رحلتي للحرمين، وما عانيت من ألم وحزن الفراق وقت رحيلي عنهما عائدًا إلى وطني"[٢١].

(١٨) إبراهيم، **مقدمة الرحلة الهندية**، ص٦.
(١٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٩-١٢.
(٢٠) المصدر السابق، ص١١٢، ١١٨.
(٢١) المصدر السابق، ص١٢-١٣.

قبل الدخول في تفاصيل رحلة المراد آبادي، ينبغي إعطاء لمحة موجزة عنها؛ فعدد صفحاتها المترجمة إلى اللغة العربية مائة وخمسون صفحة من الحجم الوسط. وقد بدأ الرحالة رحلته إلى الحرمين الشريفين من الهند في شهر المحرم١٢٠١هـ/ نوفمبر ١٧٨٦م، مرورًا باليمن، فوصف أهم المعالم والمدن التي مر بها، والأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية فيها؛ فخصص لها ما يقرب من خمس وخمسين صفحة، أي نحو ثلث صفحات الرحلة(٢٢). وقد وصل المراد آبادي مكة المكرمة في الرابع عشر من شوال ١٢٠١هـ/ ٣٠ يوليو ١٧٨٧م، وأقام فيها حتى منتصف شهر صفر ١٢٠٢هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٧٨٧م، أي أنه أقام في مكة في الزيارة الأولى نحو أربعة أشهر، وخصص للحديث عنها نحو اثنتين وثلاثين صفحة(٢٣). ثم وصل في رحلته إلى المدينة المنورة في ٦ ربيع أول ١٢٠٢هـ/ ١٦ديسمبر١٧٨٧م، فأقام فيها حتى ٩ شعبان ١٢٠٢هـ/ ١٥مايو ١٧٨٨م ، وخصص لها نحو اثنتين وثلاثين صفحة(٢٤). بعدها عاد إلى مكة المكرمة، فوصلها في ١٣شعبان ١٢٠٢هـ/ ١٩ مايو ١٧٨٨م، فأقام فيها إلى ٥ ذو القعدة ١٢٠٢هـ/ ٧ أغسطس ١٧٨٨م، أي أنه أقام في مكة نحو ثمانين يومًا، وخصص لها خمس عشرة صفحة(٢٥).

(٢٢) المصدر السابق، ص١٣.
(٢٣) المصدر السابق، ص٦٤-٩٦.
(٢٤) المصدر السابق، ص١٠٤-١٣٦.
(٢٥) المصدر السابق، ص١٣٦-١٥١.

وبعد ذلك التاريخ، عاد المراد آبادي إلى دياره، فوصلها في ربيع الثاني ١٢٠٣هـ/ ديسمبر ١٧٨٨م، بعد رحلة دامت سنتين وشهرين وأسبوعين[٢٦].

وتأسيسًا على ما سبق، فإن المراد آبادي، قد أقام في مكة في رحلته الأولى في أول وصوله إلى مكة ثم عودته إليها بعد زيارة المدينة، قرابة سبعة أشهر، خصص لها في رحلتيه نحو سبع وأربعين صفحة؛ ولا يعني هذا بأن أهمية الرحلة تكمن في عدد صفحاتها، بقدر أهمية المعلومات الواردة فيها، وهو ما سيتضح فيما بعد.

وأما المصادر التي اعتمدها المراد آبادي في وصفه للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة؛ فإنه من خلال التدقيق في النصوص والمعلومات الواردة في الرحلة عن تلك المواضيع، يمكن القول إن المراد آبادي استند إلى ثلاثة أنواع من المصادر، هي:

أ - المشاهدة والمعاينة:

تعد المشاهدة والمعاينة من العناصر الأساسية التي تعتمد لجمع المعلومات من قبل الرحالة، إذ إنهم وصفوا ما شاهدوه وعاينوه في رحلاتهم[٢٧]، وكذا المراد آبادي الذي اعتمد في

---

(٢٦) المصدر السابق، ص١٦١.

(٢٧) عواطف محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين: دراسة تحليلية نقدية مقارنة**، ط١، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٠٠-١٢٣.

جمع معلوماته عن مكة المكرمة على المشاهدة والمعاينة، لأنهما من الأدوات الحساسة والصادقة لوصف ما شاهده في المناطق التي زارها، على الرغم من أنه لا يصرح في ذلك أغلب الأحيان، لكن تلك المعلومات تشعر بذلك، وأنها جزء من مشاهداته، وإن كان أحيانًا يصرح بذلك، منها عند حديثه عن النقود المغربية، فيذكر أنه شاهدها(٢٨). وأيضًا عندما تحدث عن أسواق مكة يشير إلى المشاهدة صراحة بقوله: "ترى أسواق هذا الوادي مملوءة بالرزق"(٢٩).

ب - المصادر الشفهية:

كان من بين الوسائل التي اعتمد عليها المراد آبادي في جمع معلوماته عن مكة المصادر الشفهية؛ وذلك من خلال الروايات الشفهية التي وردت على لسان علماء وطلاب علم وعامة التقى بهم في مكة، حيث اتصفت تلك الروايات بالتعدد والتنوع. وكان من بين تلك الوسائل الأسئلة والاستفسارات بهدف جمع معلومات أكثر تفصيلاً حول الموضوعات المطروحة من ناحية، والوصول إلى إجابة دقيقة وواضحة بشأنها من ناحية أخرى. ومن الأمثلة على ذلك، سؤاله لمفتي(٣٠) الحنفية في مكة المكرمة عبدالملك القلعي

(٢٨) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٨.

(٢٩) المصدر السابق، ص٧٩.

(٣٠) المفتي: هو رأس السلطة الدينية في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، مهمته إصدار الرأي الديني والقانوني في المسائل المطلوبة، وأحيانًا يقوم بأعمال القضاء، وأغلب من تولى هذا المنصب في مكة، في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، =

الحنفي (ت ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م[٣١]، ولمفتي المالكية حسين بن علي المالكي (ت١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م)[٣٢]، عن قضية صلاة الجماعة في الحرمين الشريفين وفق المذاهب الإسلامية الأربعة[٣٣].

وسأل المراد آبادي أحد علماء مكة المكرمة دون أن يفصح عن اسمه، عن مسألة وضع جنائز الموتى في مكة بالقرب من باب الكعبة، فأجيب عن سؤاله[٣٤]. ولم تقتصر الأسئلة والاستفسارات التي طرحها المراد آبادي على الطابع الديني فقط، بل امتدت إلى مجالات ذات طابع اجتماعي، مثل

= كانوا من العرب. انظر: محمد علي فهيم بيومي، **تاريخ القضاء في الحرمين الشريفين إبان القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي**، القاهرة، ط١، مكتبة زهراء الشرق، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٥٩-٦٤.

(٣١) عبدالملك القلعي: أحد أبرز العلماء في مكة المكرمة، إذ إنه عمل في مجال الإفتاء لمدة سبعة وثلاثين عامًا، كما عمل في مجال التدريس في المسجد الحرام، له عدد من الكتب، منها فتاوى في ثلاثة مجلدات، وشرح الآجرومية. انظر: عبدالله مرداد أبو الخير، **المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر**، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي، جدة، ط١، عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٣٢) حسين بن علي المالكي: مفتي المالكية في مكة، عمل في التدريس في المسجد الحرام، يعد من أفضل علماء مكة وأعيانها، كانت له مكانة مرموقة لدى الشريف غالب شريف مكة. انظر: مرداد، **المختصر من كتاب نشر النور**، ص١٨٢.

(٣٣) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٦٧، ٨٨-٨٩.

(٣٤) المصدر السابق، ص٩٣.

الاستفسار عن بعض العادات والتقاليد الاجتماعية المتبعة في مكة[٣٥]، واقتصادي له علاقة بالتجارة فيها[٣٦].

لم تقتصر أسئلة رفيع الدين المراد آبادي واستفساراته، على روايات أحادية، أي من شخص واحد، بل اعتمد على روايات متعددة، إذ إنه سأل عددًا من الأشخاص، أو أعدادًا كبيرة من الناس، ومن الأمثلة على ذلك عند سؤاله عن مدى رخص أسعار الحبوب في مكة المكرمة، اعتمد على رواية، جاء فيها: "ويقول أهل مكة"[٣٧]، وإجابة عن سؤاله المتعلق بالخطوط التي تشاهد على وجوه أهل مكة، فإنه ذكر إجابة جماعية بقوله: "وقد ذكروا"، دلالة على الإجابة الجمعية[٣٨]. ومن ثم فإن الإجابات الجماعية، التي كان يتلقاها المراد آبادي جوابًا عن أسئلته، كان من شأنها أن تقوي صحة المعلومات، وتعطيها مصداقية، وكأنها معلومات تمثل الرأي العام آنذاك.

ومن الوسائل الأخرى التي اتبعها المراد آبادي للتحقق من صحة المعلومات التي يحصل عليها، عن مكة المكرمة، أنه لم يكتف بالمعلومات التي يسمعها من المختصين، وخاصة العلماء منهم، بل كان يناقشهم ويحاورهم بهدف الوصول إلى دقة في المعلومات. ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث مع السيد عقيل

(٣٥) المصدر نفسه.
(٣٦) المصدر السابق، ص٧٩.
(٣٧) المصدر نفسه.
(٣٨) المصدر السابق، ص٩٣.

بن السيد عمر السقاف (ت ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م)[٣٩]، في بعض القضايا الدينية[٤٠].

ولم تقتصر طرق جمع المعلومات عند المراد آبادي، على الروايات الشفهية على ما ذكر سابقًا، بل امتد إلى مجالات أخرى مهمة، منها الإصغاء والاستماع للمراسيم والفرمانات الرسمية للدولة العثمانية، التي كانت تعلن على الملأ في المسجد الحرام، كما حدث في يوم ١٥ شعبان ١٢٠٢هـ/ ٢١ مايو ١٧٨٨م، عندما قرئ مرسوم سلطاني موجه إلى أعيان مكة، يتحدث عن الاعتداءات التي وقعت على الدولة العثمانية، وطلب الدعاء لها بالنصر. وقد أشار المراد آبادي إلى ذلك بقوله إنه: "كان موجودًا عند قراءة المرسوم"، فسجل المرسوم، الذي كان يتضمن معلومات وتفاصيل مهمة عن ذلك الموضوع في رحلته[٤١]؛ وهذا يدلل على دقة السماع والانتباه لديه.

ج - المصادر المكتوبة:

اعتمد المراد آبادي في حديثه عن مكة المكرمة، على مؤلفات مكتوبة، فهو عندما يتحدث عن قضايا دينية، يشير إلى أنه طالع كثيرًا من الرسائل المتعلقة بالموضوع،على الرغم

(٣٩) السيد عقيل: من علماء مكة الأفاضل، له علوم جليلة وتآليف عدة وأجوبة منها: "تنبيه الغافلين"، و "أسباب إصلاح البيوت". عمل في مجال التجارة وبرز في هذا المجال. انظر: مرداد، **المختصر من كتاب نشر النور والزهر**، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٤٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٦٦-٨٧.

(٤١) المصدر السابق، ص١٣٧-١٣٨.

من أنه لم يحددها[٤٢]، وعندما يتناول موضوعات تاريخية، مثل سلاطين الدولة العثمانية والحرمين الشريفين، يشير إلى عبارة "مطالعة كتب التاريخ في هذا المجال"[٤٣]، ويلاحظ مما سبق أن المراد آبادي اعتمد على مصادر تاريخية، دون أن يحدد أسماءها بدقة.

وفي حالات أخرى، أشار المراد آبادي إلى مصادره بدقة، ومن الأمثلة على ذلك عندما تناول موضوع النقود المغربية، أشار إلى الآية القرآنية[٤٤]: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[٤٥]، وفي موضع آخر عند حديثه عن مشروع عين زبيدة المائي في مكة المكرمة يشير صراحة، إلى اعتماده على العلامة قطب الدين النهروالي (٩١٧- ٩٩٠هـ/ ١٥١١- ١٥٨٢م)[٤٦]، في كتابه "تاريخ مكة"[٤٧].

(٤٢) المصدر السابق، ص٦٦.

(٤٣) المصدر السابق، ص٧٥.

(٤٤) المصدر السابق، ص٧٨.

(٤٥) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٤٦) قطب الدين: هو محمد بن أحمد بن محمد النهروالي، ولد في الهند عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، ثم استقر في مكة المكرمة، حيث تلقى تعليمه على يدي بعض المشايخ هناك، برع في مجال الفقه، وعلوم اللغة، ونظم الشعر. وألف بأكثر من لغة كالفارسية والتركية والعربية، ومن مؤلفاته" البرق اليماني في الفتح العثماني" و"الإعلام بأعلام بيت الله الحرام". انظر: محمد يوسف عمر، **التاريخ والمؤرخون بمكة المكرمة في القرن العاشر الهجري ومناهجهم**، رسالة دكتوراة غير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص١٩٣-١٩٧.

(٤٧) قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد النهروالي، **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، ط١، تحقيق محمد عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

وبتدقيق المعلومات التي أوردها المراد آبادي، بالاعتماد على النهروالي، يتبين مدى تنوع مصادر المعلومات التي أوردها المراد آبادي في رحلته وتنوعها، الأمر الذي من شأنه أن يعطيها أهمية خاصة(٤٨).

في ضوء ما سبق، فإن المصادر التي اعتمد عليها المراد آبادي تميزت بالتنوع والتعدد والشمول، مما يضفي على الرحلة أهمية خاصة؛ كما يمكن القول بأن المعلومات التي أوردها عن مكة فيها مصداقية، وإن تخللها أحيانًا إشارات عامة للمصادر والمراجع دون تحديدها بدقة، أو أنه أحيانًا لا يكون مصيبًا في اجتهاده، كما سيتضح ذلك فيما بعد؛ لأن أغلب معلوماته كانت تعتمد على المشاهدات، التي قد يصيبها الخلل.

ثانيًا: الجوانب الاجتماعية بمكة المكرمة

عند تحليل المعلومات الاجتماعية الواردة في رحلة المراد آبادي عن مكة المكرمة، يتضح أن هناك عناوين رئيسة توضح الرؤية للموضوع، يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول هم سكان مكة، والثاني هم حجاج بيت الله الحرام.

أ - سكان مكة المكرمة:

أشار المراد آبادي في رحلته إلى الفئات التي كانت تعيش في مكة، في أثناء رحلته، وقسمها إلى قسمين، هما:

القسم الأول: سكان مكة المقيمون فيها من فترات طويلة: وتكونوا من الفئات التالية:

(٤٨) المصدر السابق، ص٣٣٩-٣٤٠.

١ - سكان مكة المكرمة الأصليون: وقد أشار إليهم الرحالة عند حديثه عن الفئات الاجتماعية في الحرمين الشريفين بشكل عام، فقال عنهم: "وفي الوقت الحاضر لم يبق في الحرمين الشريفين أحد من سكان البلاد الأصليين الذين سكنوا البلاد في عهد النبوة، أما أسرة الشيبي(٤٩)، صاحب مفتاح الكعبة، فلا يزال منهم عدد قليل جدًا لا يتجاوز عدد الأصابع، يقيمون في مكة المكرمة"(٥٠). وكان من جملة هذه الفئة، الأشراف فعرفهم بأنهم من السادات الحسنية، وأن أغلبهم على المذهب الحنفي، ويقال لهم "بنو زيد"، نسبة إلى جدهم الأعلى الشريف زيد بن حسين (١٠١٤-١٠٧٧هـ/ ١٦٠٥-١٦٦٦م)(٥١)، وأنهم يمتلكون الأراضي الزراعية والمزارع والخيول والعبيد(٥٢).

(٤٩) بنو شيبة: هم سدنة الكعبة المشرفة في الجاهلية والإسلام، حيث إنهم يقومون بفتحها وغلقها، ويعرفون بالحجبة لأنهم يحملون مفاتيح الكعبة. لمزيد من المعلومات انظر: محمد صالح زين العابدين الشيبي، **إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام**، ط١، تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل، مكة المكرمة، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٤٣-٤٨.

(٥٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٦.

(٥١) الشريف زيد بن حسين: تولى إمارة مكة المكرمة بين عامي ١٠٤١-١٠٧٧هـ/ ١٦٣١-١٦٦٦م، اتصف بالتدين والعدل، وحرصه على خدمة الحجاج، نشر الأمن والاستقرار في فترة حكمه. انظر: مسعود محمد آل زيد، **تاريخ مكة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد ١٠٤١-١٢٩٩هـ/ ١٦٣١-١٨٨١م**، ط١، القاهرة، دار القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤٧-٥٩.

(٥٢) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٨٠-٨١، ١٤٣.

وينبغي التوقف عند المعلومات المذكورة أعلاه التي أوردها المراد آبادي عن سكان مكة الأصليين، فلا شك أن أغلب سكان مكة، هم من غير السكان الأصليين، وهذا الأمر تؤكده المصادر الأخرى التي تناولت سكان مكة، في الحقبة المعاصرة للمراد آبادي(٥٣). ويمكن تفسيره بأن موسم الحج، في مكة المكرمة، يشهد وجود أعداد كبيرة من الحجاج من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وعند مقارنة أعدادهم، بأعداد سكان مكة، تصبح نسبة الحجاج في مكة مرتفعة مقارنة بسكان مكة الأصليين ولا يعني ذلك بأي شكل من الأشكال أن نسبة سكان مكة الأصليين قليلة جدًا، والدليل على ذلك أن المؤلف يشير في مكان آخر من رحلته إلى أن إحدى القرى المحيطة بمكة المكرمة "جميع سكانها من القرشيين"(٥٤).

وتجدر الإشارة إلى أن سكان مكة في تلك الفترة كانوا يلقبون بمهنهم، ولم يكن لهم ذلك التكالب الشديد على الانتساب للقبيلة، ومنهم من انتقل أجدادهم منذ فترات طويلة لخارج مكة، وعادوا بعد ذلك ولهم ألقاب مختلفة، بل لقد تزوجوا في المناطق التي عاشوا فيها، فظهرت على أولادهم سمات الجنس الذي تناسلوا منه.

---

(٥٣) على سبيل المثال لا الحصر، انظر: جون لويس بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ترجمة عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٦٨؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤١٢.

(٥٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٨.

٢ - القبائل العربية: وقد سكنت في المناطق التي تحيط بمكة المكرمة، ويعملون في مجالات شتى، من بينها حراسة قوافل الحج وتأمين سلامتها، إضافة إلى أن بعض أفرادها قد عملوا في مجال الخدمة العسكرية، لدى الأشراف في مكة المكرمة(٥٥).

٣ - المجاورون: وهم من المسلمين الذين قدموا من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وأقاموا في منطقة الحرمين الشريفين منذ فترات ليست بقصيرة، وأبرز هذه العناصر من: الهند، والسند(٥٦)، ومصر، والمغرب، وفارس(٥٧).

٤ - العبيد والجواري: أشار الرحالة إلى وجود العبيد والجواري في مكة، لا سيما الأحباش منهم(٥٨)، الذين عملوا في مجالات مختلفة؛ كالعمل في البيوت، وفي خدمة الأشراف، حيث إنهم كانوا يعملون لديهم في وظائف ذات طابع عسكري؛ كفرسان ومشاة(٥٩).

(٥٥) المصدر السابق، ص٧٦، ٨١، ١٤٢.

(٥٦) المصدر السابق، ص١٤٦. عن وجود أهل الهند والسند في مكة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين. انظر: فاروقي، **حجاج وسلاطين**، ص٢١٧-٢٢٤.

(٥٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٨٣.

(٥٨) المصدر السابق، ص٧٩. وعن وجود الجواري الحبشيات في مكة المكرمة. انظر: بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٧٤؛ ريتشارد بيرتون، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ج٣، ص٩٣؛ أبو القاسم سعد الله، **رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١-١٨٤٢م، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج١، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٥٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٢.

القسم الثاني: حجاج بيت الله الحرام: وهم الذين قدموا إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج والعمرة، وهم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وخاصة من بلاد الشام، وتركيا، والمغرب، واليمن، والعراق، ومصر، والهند. وهم على فئات اجتماعية واقتصادية، متفاوتة من الفقراء والأغنياء. وقدم هؤلاء إلى مكة المكرمة بهمم عالية، وحماس منقطع النظير[٦٠].

ب - أخلاق أهل مكة وحجاج العالم الإسلامي:

وكان من جملة الموضوعات التي تناولها المراد آبادي في رحلته الأخلاق الحسنة التي يتمتع بها سكان مكة، سواء كان منهم العامة أم الخاصة، فذكر أنهم: "يتحلون بالأخلاق الفاضلة، وبحسن المعاملة، فكبار القوم هنا والعلماء يعاملون المسافرين والغرباء معاملة طيبة تتصف بالتواضع الجم وحسن الخلق، وكأنهم لم يسمعوا عن الغرور والكبر"[٦١]. ويشير المراد آبادي إلى حادثة وقعت له في أثناء سعيه بين الصفا والمروة، إذ إن أحد شيوخ مكة قد أخذ بيده طالبًا منه أن يدعو له؛ وذلك لأنه من جيران الله عز وجل، وقد فضلهم على غيرهم، وأنه تشريف لأهل مكة، الأمر الذي أثر في عاطفته، فانهمرت دموعه باكيًا من هذا التصرف[٦٢].

وأما أبناء القبائل العربية، فيذكر المراد آبادي أنهم يتصفون بعمل الخير والإحسان، واتباع العادات والتقاليد

(٦٠) المصدر السابق، ص٩٤.
(٦١) المصدر السابق، ص٩٢.
(٦٢) المصدر نفسه.

العربية القديمة، وحسن إكرامهم للغرباء والمساكين عامة، والهنود خاصة. وأشاد بحسن أخلاقهم والتزامهم بأداء زكاة مواشيهم، وأنه قل أن يوجد بينهم فاسد أو فاسق(٦٣).

وبخصوص حجاج بيت الله الحرام، ركز المراد آبادي على ثلاث فئات، هي: التركمان، الذين يتميزون بالسخاء في إنفاق الأموال الطائلة في أثناء الحج، وعندما يتجهزون للعودة إلى ديارهم، فإنهم يمنحون الفقراء معظم ما يملكون من النقود والبضائع والفرش والأواني والملابس الزائدة عن حاجتهم. كما أن بعضهم، عندما يعودون إلى ديارهم يرسلون الهدايا إلى من ربطتهم بهم علاقة في أثناء الحج، وتتكرر تلك الهدايا سنويًا(٦٤).

أما الفئة الثانية، فهم حجاج التكرور، سكان أقصى الغرب من السودان، وكان عددهم في موسم الحج كبيرًا "كأسراب الجراد"، وأغلبهم من الفقراء، وعملوا في جمع الأضاحي والهدي وتقطيعها، من أجل سهولة حملها، ويتميز أكثرهم بأنهم من المتعلمين، والمتمسكين بأمور دينهم(٦٥).

وكانت الفئة الثالثة التي تحدث عنها المراد آبادي بشيء من التفصيل الهنود، لأنه ينتمي إليهم؛ لذا فقد أولى بني

(٦٣) المصدر السابق، ص١٤٧-١٤٨.

(٦٤) المصدر السابق، ص٩٤.

(٦٥) المصدر السابق، ص٩٤-٩٥. لمزيد من المعلومات عن التكرور في مكة، انظر: سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة علي عودة الشيوخ، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص٣١٤؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ج٣، ص٨٠.

جلدته عناية خاصة، لكنه ركز على المآخذ عليهم؛ إذ إنه وجه انتقادًا لاذعًا لأثريائهم من المسلمين، وبين أنهم انشغلوا في أمور حياتهم، ونعتهم بالبخل والشح وقلة الالتزام بأمور الدين، إذ إنهم لم يستغلوا الفرصة المناسبة لأداء مناسك الحج والعمرة، كما أنهم يعتبرون أن تأدية الصلاة والصوم في رمضان هو التقوى والفلاح، ولكنهم لا يلتفتون إلى فريضة الحج والزكاة(٦٦). وقد يكون في وصف المراد آبادي شيء من الصحة؛ لأنه من أهل الهند، وعلى معرفة ودراية بأمورهم، لكن ما يؤخذ عليه تعميمه في هذه الحالة، وقد يكون ذلك الأمر بعيدًا عن الدقة. وأكد المراد آبادي أن جل حجاج الهند من الفقراء والمساكين، فقد وصف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بأنها مزرية، وأنهم اتخذوا من التسول مهنة لهم في موسم الحج، فأسبغ عليهم صبغة "التسول والضجر"، حتى أنهم غدوا مضرب الأمثال في هذا المجال، وعند عودة هؤلاء الحجاج إلى ديارهم، فإنهم يغالون في وصف المتاعب والمصاعب التي اعترضتهم في أثناء الطريق، ومن ثم فإنهم يضعفون همم من يستمع إليهم، وقد يثنونهم عن أداء هذا الفرض الديني(٦٧).

ج - الاحتفالات في مكة:

اعتاد المكيون إقامة الاحتفالات الدينية والاجتماعية، خلال الفترات التاريخية المختلفة، بما فيها فترة القرنين

(٦٦) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٩٥.

(٦٧) المصدر السابق، ص٩٥-٩٦. لمزيد من المعلومات عن أوضاع الحجاج الهنود في مكة، انظر: طناش، **تاريخ الصلات بين الحجاز والهند**، ص٤٥-٥٢؛ بيرتون، **رحلة بيرتون**، ج٣، ص٥٦.

الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين[٦٨]، وقد شاهد المراد آبادي في رحلته إلى الحجاز، عددًا من تلك الاحتفالات، من أهمها:

١ - الاحتفالات بليلة النصف من شعبان:

ومن الاحتفالات الدينية المهمة عند أهل مكة، الاحتفال "بفضل ليلة النصف من شعبان"، وذلك بعد صلاة العصر من اليوم الرابع عشر من شهر شعبان، حيث يتم وضع المنبر في الجهة الشمالية من الحرم المكي، ليقوم العلماء بإلقاء الخطب والمحاضرات عن فضل هذا الشهر، يتخللها كلمات تمجيد للدولة العثمانية وسلاطينها. وبعد الانتهاء منها يحتشد المجتمعون أمام البيت الحرام، فيفتح باب الكعبة، فيدخلون فيها ويدعون فيها ما شاءوا[٦٩]. وتكمن أهمية المعلومات التي أوردها المراد آبادي عن هذا الاحتفال، أنها جاءت مكملة ومتممة لما أوردته المراجع الأخرى عن هذا الموضوع[٧٠].

(٦٨) نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤١٠؛ محمد علي فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي في مكة المكرمة في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي**، ط١، القاهرة، زهراء الشرق، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٨٢-٢٠٤.

(٦٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٠-١٤١. ولمزيد من المعلومات، انظر: نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤١٠-٤١٤؛ فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي بمكة**، ص١٨٩-١٩٢.

(٧٠) لمزيد من المعلومات عن احتفالات أهل مكة بشهر رمضان، انظر: إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج والمشاعر الدينية**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ج١، ص٤٨١؛ هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ج٢، ص٣٨١-٣٨٣؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤١٠-٤١٣؛ فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي في مكة المكرمة**، ص١٨٢-١٨٣.

٢ - الاحتفالات بشهر رمضان:

تنوعت احتفالات أهل مكة بشهر رمضان المبارك[٧١]، والتي يصفها المراد آبادي في رحلته وصفًا دقيقًا، فذكر أن أهل مكة، وكذلك الحجاج، يزدحمون داخل المسجد الحرام منذ اليوم الأول من الشهر؛ وهناك جماعات منهم تصلي صلاة التراويح، فيما تؤدي جماعات أخرى العمرة، ويحاول أكبر قدر منهم تأدية الصلوات الخمس في الجماعات الأولى، ويحرصون على حضور ختم القرآن الكريم في نهاية الشهر الكريم، وكان المسجد الحرام في الشهر الفضيل يضاء بالقناديل والفوانيس والشموع[٧٢].

لقد أبدى المراد آبادي إعجابه وذهوله من الأعداد الكبيرة من المصلين في الحرم المكي بقوله: "ومجمل القول أن ما يشاهد هنا عجيب ومثير، والإنسان يشعر بحلاوة الذكر والتسبيح، والتلاوة، والتكبير، وهذا ما يعجز القلم عن تسطيره، ويعجز اللسان عن وصفه، فإذا ما قضيت التراويح انتشر أهل مكة عائدين إلى بيوتهم، بينما تفتح دكاكين مكة أبوابها إلى وقت السحور"[٧٣].

---

(٧١) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤١.

(٧٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٧٣) لم تشر كتب الرحلات الإسلامية والغربية المعتمدة في هذه الدراسة إلى هذه الاحتفالات. انظر: نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤٠١-٤٨٢؛ دومنجو باديا (علي باي العباسي)، **رحالة إسباني في الجزيرة العربية: رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧م**، ترجمة صالح السنيدي، ط١، =

٣ - الاحتفال بعيد الفطر:

شهد المراد آبادي عيد الفطر بمكة المكرمة فوصف الاحتفال به بدقة، فذكر أن شريف مكة آنذاك، وهو الشريف غالب بن مساعد(٧٤)، قد حضر صلاة العيد، وبعدها جلس في الساحة المقابلة للركن اليماني، فأخذ يخلع الخلع من الملابس على غلمانه، وكان عددهم يزيد عن الخمسمائة غلام، فازدحمت ساحات الحرم المكي بالناس الذين ارتدوا الملابس ذات الأشكال والألوان المختلفة فغدت ساحات الحرم "كأنها حدائق مملوءة بمختلف أنواع الأزهار المتفتحة في فصل الصيف"(٧٥).

وبين المراد آبادي أن المكيين يحتفلون بالعيد لمدة أربعة أيام، كانوا يلبسون فيها مختلف أنواع الملابس، وقد ظهر

= الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص٣٠١-٣٠٣؛ بوركهارت، **رحلات إلى شبه جزيرة العرب**، ص٨٤- ٢٢٤؛ **رحلة بيرتون**، ج٣، ص١١-١٢٣.

(٧٤) الشريف غالب بن مساعد: تولى إمارة مكة المكرمة بين عامي ١٢٠٢-١٢٢٨هـ/ ١٧٨٨-١٨١٣م، ويعد من أبرز من تولى هذه الإمارة، عاصر ظهور الحركة الإصلاحية في نجد، التي قادها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتصدى لها. لمزيد من المعلومات عنه، انظر: سامية محمد أسعد بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد في مكة ١٢٠٢-١٢٢٨هـ/ ١٧٨٧-١٨١٢م**، الرياض، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٥-٣٠؛ إسماعيل حقي جارشلي، **أشراف مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، ترجمه عن اللغة التركية خليل علي مراد، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٩٣-٢٠١.

(٧٥) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤١-١٤٢.

عليهم الفرح والسرور، ويتخلل تلك الاحتفالات مشاركة فئات مختلفة من الجند: الفرسان والمشاة والبدو، الذين يجرون مسابقات بين خيولهم في ميادين مكة، ويتبارزون فيما بينهم بالسيوف والرماح، كما أن أهل مكة من العامة كانوا يستأجرون الحمير، ويتسابقون فيها فيما بينهم(٧٦). وتكمن أهمية تلك المعلومات في أن المصادر التاريخية المكية التي تناولت فترة التاريخ الحديث (٩٢٣-١٣٣٢هـ/ ١٥١٧-١٩١٤م) لم تشر إلى مثل هذه التفاصيل(٧٧)، وكذا الرحالة المسلمون والغربيون الذين زاروا مكة في تلك الفترة(٧٨)، ومن ثم فإنه أضاف معلومات مهمة في هذا المجال.

(٧٦) المصدر السابق، ص١٤٢.

(٧٧) وصل الباحث إلى هذه النتيجة، بعد أن دقق في أهم مصادر التاريخ المكي التي تناولت فترة التاريخ الحديث (١٥١٧-١٩١٤م)، ولم يعثر فيها على معلومات مشابهة لها، وللتأكد من هذه الحقيقة فإن الباحث يحيل القارئ إلى هذه المصادر المتعلقة بمكة المكرمة مثل: ابن فهد، جار الله بن العز بن النجم (٨٩١-٩٥٤هـ/ ١٤٨٦-١٥٤٧م)، كتاب **نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى (تاريخ مكة المكرمة) من سنة (٩٢٢-٩٤٦هـ)**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط١، جدة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جزءان؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، جزءان؛ ابن ظهيرة، محمد بن أبي بكر (ت ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، **الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف**، تحقيق علي عمر، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٧٨) وصل الباحث لهذه النتيجة، بعد أن دقق في أهم الرحلات الإسلامية والغربية إلى مكة المكرمة في التاريخ الحديث (١٥١٧-١٩١٤م)، ولم يعثر فيها على معلومات مشابهة لها، وللتأكد من هذه الحقيقة فإن الباحث يحيل القارئ إلى هذه الرحلات المتعلقة بمكة =

د - العادات والتقاليد ذات الطابع الديني:

شاهد المراد آبادي في أثناء رحلته إلى مكة المكرمة بعض العادات والتقاليد ذات الطابع الديني، منها:

١ - الجنائز:

ذكر المراد آبادي أن الجنائز في مكة يؤتى بها إلى المطاف وتوضع على الأرض، قرب باب الكعبة، ثم تحمل للصلاة عليها، ومن ثمة تؤخذ لدفنها. وقد كان من الطبيعي الصلاة على الميت بالمسجد الحرام، وهو المسجد الجامع، والصلاة فيه أفضل من غيره من المساجد في مكة(٧٩).

٢ - صلوات الجماعة في الحرم المكي:

لعل من الموضوعات الدينية المهمة التي تعرض لها المراد آبادي في رحلته موضوع تنظيم صلوات الجماعة في المسجد الحرام، وفقًا للمذاهب الإسلامية الأربعة: الشافعي، والمالكي، والحنفي، والحنبلي، وبين أنه قد استحدث في

= المكرمة أدناه: العياشي، عبدالله بن محمد (١٠٣٧-١٠٩٠هـ/ ١٦٢٧-١٦٧٩م)، **الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد**، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤٠١-٤٨٥؛ هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة**، جزءان؛ أبوالقاسم سعد الله، **رحلة ليون روش إلى الحجاز ١٨٤١-١٨٤٢م، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج١، ص٢٢٧-٢٨٢؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ج٣، ص١١-١٢٣؛ بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٦٨-٢٠٠؛ **رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي)، إلى مكة**، ص٢٤٣-٢٧٨.

(٧٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٩٣. لمزيد من المعلومات، انظر: **رحلة دومنجو باديا(علي باي العباسي)، إلى مكة**، ص٢٥١؛ فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي في مكة**، ص١٧٧-١٨٢.

القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[٨٠]، ويقوم هذا التنظيم على إقامة ما لا يقل عن ثلاث جماعات للصلاة الواحدة، وفق الترتيب الآتي: صلاة الفجر؛ يبدأها إمام الشافعية، يليه المالكية، ثم الأحناف؛ أما صلاة الظهر والعصر والعشاء فيبدؤها إمام المالكية، يليه الشافعية، فالأحناف؛ وفيما يتعلق بصلاة المغرب، فيبدؤها إمام الأحناف، يليه الشافعية[٨١]. وأما الحنابلة فلم يكن لهم صلاة جماعة سوى الفجر، وفي الصلوات الأخرى يصلون خلف الأئمة من المذاهب الأخرى. مع العلم بأن المراد آبادي أكد جواز الاقتداء بالإمام، حتى ولو كان على مذهب آخر[٨٢]. لقد علل الرحالة السبب الرئيس في عدم إقامة صلاة جماعة خاصة بالمذهب الحنبلي سوى الفجر بقلة أعداد أتباع هذا المذهب آنذاك[٨٣].

وعلى الرغم من التراتبية في صلوات الجماعة، وفق المذاهب الأربعة، التي كانت متبعة في المسجد الحرام، فقد

(٨٠) أشار ابن جبير في رحلته إلى مكة المكرمة عام ٥٧٩-/٥٨٠ ١١٨٣-١١٨٤م، إلى وجود صلوات جماعة في المسجد الحرام، وفق المذاهب الإسلامية الأربعة، انظر: محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار صادر (د.ت)، ص٧٨-٧٩.

(٨١) تجد معلومات عن مثل هذا الترتيب، في: ابن ظهيرة، **الجامع اللطيف**، ص٢٨٣-٢٨٤؛ الميموني، **تهنئة أهل الإسلام**، ص١٥٣-١٥٤؛ العياشي، **الرحلة العياشية**، م١، ص٤٤٢؛ رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٢٥١-٢٥٢؛ هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة**، ج٢، ص٣٨٣-٣٨٤، ٣٨٩-٣٩٠؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤٣٦-٤٣٧.

(٨٢) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٦٦-٦٧.

(٨٣) المصدر السابق، ص٨٩.

كان من عادة علماء مكة المكرمة، في أثناء زيارة المراد آبادي لها، أن يصلوا صلاة الجماعة القائمة، بغض النظر عن مذهب الإمام(٨٤).

٣ - فتح باب الكعبة:

من الأمور المهمة التي استرعت انتباه المراد آبادي، في زيارته لمكة المكرمة، فتح باب الكعبة المشرفة، ودخول الناس إليها(٨٥)، وهي من الأمور المعروفة عند أهل مكة في العصرين الجاهلي والإسلامي(٨٦). وقد أشار إلى أن هذه العملية تتم وفق برنامج محدد، فالرجال خصص لهم ثمانية أيام لدخولها، هي: يوم عاشوراء(العاشر من المحرم)، الثاني عشر من ربيع الأول، يومان من رجب، والخامس عشر من شعبان، وأول جمعة من رمضان وآخرها، والخامس عشر من ذي القعدة(٨٧).

(٨٤) المصدر السابق، ص٦٧.

(٨٥) إن دخول الكعبة ليس من مناسك الحج والعمرة، وإنما هي من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء، انظر: محمد بن أحمد بن سالم الصباغ، **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام**، تحقيق عبدالملك بن عبدالله دهيش، ط١، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٦٢-١٧٢؛ أحمد بن محمد الحضراوي (١٢٥٢-١٣٢٧هـ/ ١٨٣٦-١٩٠٩م)، كتاب **العقد الثمين في فضائل البلد الأمين**، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٢٨-٢٥١؛ حسين بن عبدالله باسلامة، **تاريخ الكعبة المعظمة: عمارتها وكسوتها وسدنتها**، الرياض، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٤١٦-٤٢٩.

(٨٦) الصباغ، **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام**، ص٢٧٧-٢٧٩.

(٨٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧١.

أما النساء فقد خصص لهن دخول الكعبة أيضًا في ثمانية أيام، تكون تالية للأيام المخصصة للرجال؛ أي الحادي عشر من المحرم، والثالث عشر من ربيع الأول، وهكذا..[٨٨].

ويتضح مما سبق أن المراد آبادي أورد معلومات مهمة عن فتح باب الكعبة، في أيام عادية محددة، أشير إليها سابقًا[٨٩]، فيما كان لليوم الخامس عشر من شعبان ظروف استثنائية، تمثلت في وصول فرمان[٩٠] سلطاني[٩١] إلى أعيان مكة المكرمة وعلمائها، من أجل الدعاء للدولة العثمانية من أجل نصرتها[٩٢].

كما كانت هناك حالات استثنائية يفتح فيها باب الكعبة، إذ يذكر المراد آبادي بأنه دخل الكعبة بطريقته الخاصة؛ "وذلك لأن حامل مفتاح الكعبة - وهو من بني شيبة - يفتح باب

(٨٨) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) الفرمان: أوامر أو أحكام أو مراسيم صادرة من سلاطين الدولة العثمانية إلى جهات محددة في الدولة. لمزيد من المعلومات عن تعريفه وعناصره وأجزائه، انظر: فيصل عبدالله الكندري، الفرمانات السلطانية: دراسة في نظم الفرمانات الهمايونية ورسومها، ط١، الكويت، **حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، حولية رقم ١٥١، ١٤٢١-١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٠-٢٠٠١م، ص٢٦ -٣٠.

(٩١) السلطان العثماني الذي كان يحكم آنذاك، هو عبدالحميد الأول١١٨٧-١٢٠٣هـ/ ١٧٧٣-١٧٨٩م، وقد اتصف عهده بالركود الاقتصادي والعسكري، ووقعت في عهده أحداث وحروب خارجية، وخاصة مع إيران. انظر: عبدالقادر ده ده أوغلو، **السلاطين العثمانيون**، ترجمة محمد خان، إستانبول، الدار العثمانية للنشر (د.ت)، ص٧٣.

(٩٢) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٣٧-١٣٨.

الكعبة المشرفة في هذا اليوم، ويسمح لبعض الناس بالدخول بعد أن تسلم منهم "حق المفتاح"[٩٣]. ويفهم من هذا النص أنه يسمح لبعض الناس بالدخول إلى الكعبة، إذا ما دفعوا مبلغًا من المال مقابل ذلك.

لقد قدم المراد آبادي معلومات مهمة جدًا عن أيام فتح أبواب الكعبة، للرجال والنساء، والحالات الاستثنائية لفتحها، وهي أوضح وأدق وأكثر تفصيلاً مما ورد في كتب التاريخ والرحلات الإسلامية، في فترة التاريخ الحديث[٩٤]، وكذا كتب الرحلات الغربية التي زارت مكة في تلك الفترة[٩٥]. ومما يؤكد ذلك أن بعض المصادر التاريخية العثمانية التي يعتمد عليها في هذا المجال، قد أكدت دقة المعلومات التي أوردها المراد آبادي بهذا الشأن[٩٦].

(٩٣) المصدر السابق، ص٧٤.

(٩٤) السنجاري، **منائح الكرم**، ج٥، ص٣٢٤-٣٢٥؛ رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٤١-٤٢؛ الصباغ، **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام**، ص٢٧٧- ٢٧٨؛ العياشي، **الرحلة العياشية**، ص٤٣٦-٤٣٧؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٩٥) للمقارنة بين ما أورده المراد آبادي والرحالة الغربيون بشأن تنظيم الدخول إلى الكعبة، انظر: **رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة**، ص١٤٣؛ بوركهارت، **رحلات إلى شبه جزيرة العرب**، ص١٦٦، ٢٦٥؛ سعيد الأحرش، **مكة المكرمة وفقًا لتقرير رحلتين إسبانيتين في القرن التاسع عشر**، الأبحاث المقدمة إلى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، م٩، ج١، ص٣٥٦.

(٩٦) أيوب صبري باشا(ت١٢٩٠هـ/ ١٨٩٠م)، **موسوعة الحرمين الشريفين وجزيرة العرب**، أشرف على ترجمتها من اللغة التركية إلى =

هـ - العادات والتقاليد ذات الطابع السياسي:

كان من جملة الأمور التي تطرق إليها المراد آبادي، عادات وتقاليد ذات طابع سياسي، وتجسد ذلك في موضوعين رئيسين، هما:

١ - تعيين الأشراف ونعيهم عند وفاتهم:

أورد المراد آبادي معلومات مفيدة عن العادات والتقاليد الحجازية المتعلقة بمنصب "الشريف"، عند تعيين شريف جديد، وهو الشريف غالب سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م، فإن مكة المكرمة والمدينة المنورة، تحتفلان بهذه المناسبة، وتزينان بالزينة والأعلام لعدة أيام(٩٧).

ولم تقتصر الاحتفالات المكية في المجالات التي غلب عليها الطابع السياسي، على ما ذكر سابقًا، بل امتد إلى مجال آخر، وهو وفاة شريف مكة، وهو الشريف سرور، في ١٨ ربيع

= العربية محمد حرب، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج٢، ص٨١١-٨١٢؛ محمد الأمين المكي، **خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج**، ترجمته من اللغة التركية ماجدة مخلوف، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٠٣-١٠٥.

(٩٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١١٧. ولمزيد من المعلومات حول تعيين الأشراف في منصب الشرافة، انظر: ابن فهد، **نيل المنى**، ج١، ص١٩٤-١٩٥؛ السنجاري، **منائح الكرم**، ج٤، ص١٣٩؛ ج٥، ص٣٢٤-٣٢٥؛ الطبري، تاريخ مكة، ج١، ص٤٨٦؛ لمياء أحمد الشافعي، **قبة بئر زمزم؛ دراسة تاريخية تحليلية ٥٧٩-١٣٨٣هـ/ ١١٨٣-١٩٦٣م**، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٣٩-٤٤.

الثاني ١٢٠٢هـ / ٢٧ يناير ١٧٨٨م[٩٨]. فإن خطيبي الحرمين الشريفين، في صلاة الجمعة، قد تطرقا في خطبتيهما إلى خبر وفاته، ونعياه وأشارا إلى مناقبه[٩٩].

ويبدو أن الإعلان عن الوفيات من ذوي المناصب السياسية أو من وجهاء الحجاز، في الحرمين، كان من العادات والتقاليد المتبعة في مكة والمدينة، بأن ينادى فيهما: "بأن فلان بن فلان، انتقل إلى رحمة الله... فصلوا عليه صلاة الجنازة، أثابكم الله"[١٠٠].

وتكمن أهمية المعلومات السابقة، التي أوردها المراد آبادي، عن العادات والتقاليد التي لها طابع سياسي، بأنها إضافة مهمة لما ورد من معلومات بذلك الشأن في المصادر التاريخية المكية[١٠١]، مع العلم بأن كتب الرحلات الإسلامية والغربية

(٩٨) الشريف سرور بن مساعد: تقلد منصب "الشريف" في مكة المكرمة بين عامي ١١٨٦-١٢٠٢هـ/ ١٧٧٣-١٧٨٨م، له إنجازات سياسية واجتماعية واقتصادية، لعل من أبرزها توحيد أسرة الأشراف، وتوفير الأمن والاستقرار للأماكن المقدسة، كما شهد عهده استقرارًا اقتصاديًا. انظر: جارشلي، **أشراف مكة المكرمة**، ص١٩١-١٩٢؛ علي معتوق القط، **الحجاز في القرن الثامن عشر**، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية (د.ت)، ص٥٨-٦٧؛ عبدالله بن محمد الغازي، **إفادة الأنام بذكر أخيار بلد الله الحرام**، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ج٧، ص٦٥٧-٦٨١.

(٩٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١١٦.

(١٠٠) المصدر السابق، ص١١٧.

(١٠١) ابن فهد، **نيل المنى**، ج١، ص١٩٤-١٩٥؛ السنجاري، **منائح الكرم**، ج٤، ص١٣٩؛ ج٥، ص٣٢٤-٣٢٥؛ الطبري، **تاريخ مكة**، ج١، ص٤٨٦.

في فترة التاريخ الحديث (١٥١٧-١٩١٤م)، لم تشر إلى مثل تلك التفاصيل الدقيقة[١٠٢]، بل إن الدراسات العلمية التي تناولت فترة البحث لم تشر إلى مثلها[١٠٣].

٢ - أحداث سياسية تخص الدولة العثمانية:

ومن العادات والتقاليد ذات الطابع السياسي، التي شاهدها وسمعها المراد آبادي في أثناء رحلته إلى مكة، الاهتمام بشؤون الدولة العثمانية السياسية، من خلال قراءة مرسوم سياسي- ديني، أشير إليه سابقًا، في الحرم المكي، أهم ما جاء به: "أن طائفتين من الكفار قد حققوا انتصارًا بما لديهم من همة؛ فأقلق هذا الأمر قلوبنا، ونحن نبذل كل ما نستطيع لنصرة الإسلام، ودفع الكفرة من ديار الإسلام، وقد أرسلنا رئيس الوزراء مع الجيوش المسلمة لمواجهة الأعداء". وبعد قراءة المرسوم العثماني رفع المجتمعون

(١٠٢) نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص١٧٨-٢٤٤، ٤٠١-٤٨٢؛ بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٩٥-٢٥٦؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ج٣، ص٥٣-١٢٣؛ شارل ديدييه، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي**، ترجمها وقدم لها وعلق عليها محمد خير البقاعي، ط١، الرياض، دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢١٩-٢٦٤؛ سعدالله، **رحلة ليون روش إلى الحجاز**، ص٢٤٧-٢٨٢؛ أحمد البوزيدي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمكة والمدينة من خلال رحلة الحيوني في أواسط القرن الثالث عشر، التاسع عشر الميلادي، **دعوة الحق**، عدد٣٥٧، س٤٢، شوال- ذي الحجة١٤٢١هـ/ يناير- فبراير ٢٠٠١م، ص٤٧- ٥٨.

(١٠٣) بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد في مكة**، ص٢٩-٤٠؛ القط، **الحجاز في القرن الثامن عشر**، ص٥٨-٧٥.

"أيديهم، وهم يتضرعون إلى الله بالدعاء لنصرة جيوش المسلمين..."(١٠٤).

ويستخلص من النص السابق أن الحرم المكي، في الفترة العثمانية، كان مكانًا للدعاية السياسية والدينية؛ لحشد تأييد المسلمين وتعاطفهم مع الدولة العثمانية، والدعاء لها ولجيشها، بالانتصار على الأعداء الذين واجهتهم قوات الدولة، وخاصة من الفرس والروس والألمان(١٠٥)، في الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء(١٠٦)، مع العلم بأن المصادر التاريخية الحديثة والمعاصرة قد أشارت إلى الدعاية السياسية والدينية في الحرم المكي، لاسيما النقوش الكتابية فيه وقراءة المراسيم السياسية والدعوة لسلاطين الدولة العثمانية وأشراف مكة، إلا أن معلومات المراد آبادي في هذا المجال كانت استكمالاً لها وتفصيلاً لبعض جوانبها(١٠٧).

(١٠٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٣٨.

(١٠٥) عن العلاقات العسكرية بين الدولة العثمانية وأعدائها، انظر: عبدالرحيم بنحادة، **العثمانيون: المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، ط١، الدار البيضاء، اتصالات سبو، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٦٠-٦١؛ أوغلو، **السلاطين العثمانيين**، ص٧٣.

(١٠٦) لمزيد من المعلومات عن الأماكن التي يستجاب فيه للدعاء، انظر: الصباغ، **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام**، ج١، ص١١٧، ج٢٥٣-٢٥٥؛ الحضراوي، **العقد الثمين**، ص١٦٥-٢٠١.

(١٠٧) ابن فهد، **نيل المنى**، ج١، ص١٩٤-١٩٥؛ السنجاري، **منائح الكرم**، ج٤، ص١٣٩؛ ج٥، ص٣٢٤-٣٢٥؛ الطبري، **تاريخ مكة**، ج١، ص٤٨٦؛ الشافعي، **قبة بئر زمزم**، ص٣٤-٥٧؛ عواطف نواب، ملامح من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري: في ضوء كتابي بلوغ القرى للعز بن فهد ونيل المنى لجار الله بن فهد، **مجلة الدارة**، س٣١، ع٣، رجب ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٧م، ص٣٩١.

و - العادات والتقاليد الاجتماعية الأخرى:

أمدنا المراد آبادي بمعلومات جديدة عن العادات والتقاليد في مكة، منها: قضاء مجموعات من سكان مكة الصيف في الطائف، وإرسال الأشراف أولادهم الصغار إلى البادية، وعادة تشريط الوجه (الوسم).

وفيما يتعلق بالعادة الأولى، ذكر المراد آبادي بأن أثرياء مكة، اعتادوا قضاء فصل الصيف في الطائف؛ ويعلل ذلك من أجل أنهم "يتمتعون بهوائها الجميل ومناظرها الخلابة وبساتينها الخضراء"(١٠٨). وهو ما سبق أن تناوله بعض الرحالة الأجانب(١٠٩)، وأشارت إليه بعض المراجع التاريخية(١١٠).

أما إرسال أشراف مكة أولادهم إلى البادية - فهي عادة معروفة عند العرب منذ عهد الرسول ﷺ - فقد علل المراد آبادي ذلك بقوله: "حيث يربون هناك حتى يترعرعوا ويتعلموا اللغة العربية الفصحى دون لحن، وحتى يتعلموا ركوب الإبل والخيل والبغال والحمير، وإذا ما وصلوا سن البلوغ جيء بهم إلى مكة"(١١١). وقد جاءت معلومات المراد آبادي ، هنا لتؤكدها، كما أكدتها مصادر تاريخية معاصرة للفترة ما بين عامي (١٥١٧- ١٩١٤م)(١١٢).

---

(١٠٨) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٠.

(١٠٩) بوركهارت، **رحلات إلى شبه جزيرة العرب**، ص١٨٤؛ ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٢١-٢٢٢.

(١١٠) بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد على مكة**، ص١٠٠؛ فهيم، **ملامح النشاط الاجتماعي في مكة**، ص٢٢٦.

(١١١) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٤.

(١١٢) رفعت، **مرآة الحرمين**، ص٢٠٣-٢٠٤؛ ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص١٧-٢٢.

أما العادة الاجتماعية الثالثة التي شاهدها المراد آبادي في أثناء رحلته إلى مكة، فهي تشريط الوجه من خلال ثلاثة قطوع/ خطوط على الوجه، الأمر الذي كان مثار التساؤل لديه، فأبلغ أنها عادة من عادات الأفارقة من أهل مكة القديمة، فكان "إذا ولد لهم مولود، يبضعون جلد خديه بالموس، بعد مضي أربعين يومًا على ولادته، وهذه الخطوط الثلاثة تكون على خديه تحت العين، فيبقى أثرها على وجهه إلى آخر العمر، فيميزه عن غيره من مواليد المدن الأخرى"(١١٣). والملاحظ أن المراد آبادي، لم يبد أية ملحوظات على تلك العادة، من حيث جوازها أو عدمه. ويظهر أن هذه العادة قد أخذت بالاختفاء في الوقت الحاضر؛ لجملة من الأسباب منها: أن الرسول ﷺ قد نهى عما يغير الخِلقة، لما في ذلك من تشويه لخلق الله(١١٤). وقد شاهد بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مكة في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري هذه العادة، مع شيء من الاختلاف فيما ورد من معلومات عند المراد آبادي(١١٥).

(١١٣) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٩٣.

(١١٤) ضيف الله الزهراني، ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة من خلال كتاب (رحلات في شبه جزيرة العرب)، ١٢٣٠-١٢٣١هـ/ ١٨١٤-١٨١٥م، لمؤلفه جون لويس بوركهارت أو الحاج إبراهيم بن عبدالله، **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ج٢، ص٤٤٨-٤٤٩.

(١١٥) بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ص١٧٠؛ **رحلة دومنجو دي باديا (علي باي العباسي) إلى مكة**، ص٢٥٥؛ بيرتون، **رحلة بيرتون إلى الحجاز**، ص٨٤.

ز - أبرز الانتقادات التي وجهها المراد آبادي إلى بعض الفئات في المجتمع المكي:

انتقد المراد آبادي بعض الممارسات والعادات والتقاليد التي شاهدها في مكة المكرمة، خلال زيارته لها، ومنها: بعض المظاهر السلبية لممارسات البدو، على الرغم من أنه أشاد بهم وبصفاتهم الإيجابية فيهم، لكنه انتقدهم في مجال بعض الممارسات الدينية، مثل قلة التزام بعضهم بالصلاة والصوم، إضافة إلى أن بعضهم، عندما يحج أو يعتمر"فإنهم يفعلون أمورًا عجيبة تثير الدهشة؛ إذ يحتشد رجالهم ونساؤهم حول الكعبة وعند الحجر الأسود، فيتساقط بعضهم على بعض، ولا يستطيع أحد استلام الحجر الأسود إذا ما وجد هؤلاء، كما لا يستطيع أحد الطواف حول البيت في أمان، إذ كان هؤلاء يطوفون بالبيت، وقد رأيتهم مرات عديدة، وهم يصلون أمام الإمام لا خلفه"(١١٦). وقد أكد بعض الرحالة العرب والأجانب مثل هذه الممارسات(١١٧).

كما انتقد المراد آبادي عادة ختان الأطفال بعد سن البلوغ، والمبالغة في قطع الجلد، قد أبدى تأسفه لمثل تلك الممارسات معتبرًا أنها غير منسجمة مع أحكام الشريعة الإسلامية(١١٨).

---

(١١٦) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٨-١٤٩.

(١١٧) حمد الجاسر، **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي (ت١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م)**، ط١، الرياض، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٢٦؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ج٣، ص٥٣- ٥٤.

(١١٨) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٦٠.

وهو بذلك انفرد بالإشارة لهذه الممارسة، وهو ما لم تورده المصادر والمراجع الحديثة(١١٩).

ثالثًا: الجوانب الاقتصادية في مكة المكرمة

أمكن في ضوء تحليل الإشارات ذات الصبغة الاقتصادية الواردة في الرحلة حصر الموضوعات التي تناولها بما يلي:

أ - الزراعة والمشاريع المائية:

أما الزراعة فيذكر المراد آبادي أن مكة المكرمة، قد نشأت في "واد قفر، غير ذي زرع، كل ما فيه هضاب ومرتفعات صخرية، لا ترى فيه العين شجرة مثمرة، أو شجرة ظليلة"(١٢٠).

وتلك المعلومات التي أوردها المراد آبادي، صحيحة فيما يتعلق بالمكان المشار إليه آنفًا، أي الوادي الذي أقيم عليه الحرم المكي، لكن كلما ابتعدنا عنه، يزداد احتمال وجود مناطق زراعية فيها، وقد أكدت المصادر التاريخية المكية وكتب الرحلات الإسلامية، التي عاصرت فترة التاريخ

(١١٩) توصل الباحث لهذه النتيجة بعد أن تأكد له أن المصادر والمراجع الحديثة، المذكورة أدناه لم تورد مثل تلك المعلومات في الصفحات المتعلقة بتاريخ مكة والموضوع: بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٩٥-٢٥٦؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ج٣، ص٥٣-١٢٣؛ ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢١٩- ٢٦٤؛ سعد الله، **رحلة ليون روش إلى الحجاز**، ص٢٤٧-٢٨٢؛ البوزيدي، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمكة والمدينة**، ص٤٧-٥٨؛ نواب، **ملامح من الحياة الاجتماعية في مكة**، ص٣٨٢-٣٨٤.

(١٢٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٨.

الحديث (١٥١٧-١٩١٤م)، وجود مناطق زراعية في بعض أحياء مكة المكرمة، مثل الزاهر[١٢١]، تعد من المناطق المهمة في ذلك المجال؛ حيث توجد فيها المزارع التي تزرع فيها الأشجار المختلفة والخضروات، حتى أنها وصفت من قبلهم بأنها "جنان مكة"[١٢٢]. كما أن تلك المصادر أكدت وجود مناطق زراعية مهمة في القرى والوديان المحيطة بمكة، تتوافر فيها المياه، وتزرع فيها مختلف المزروعات من الفواكه والخضروات، بحيث إنها تسد حاجة السكان فيها، وأحيانًا تزيد عنها[١٢٣].

(١٢١) الزاهر: حي من أحياء مكة الشمالية الغربية، ويوجد في جهته الشمالية الغربية قلعة وقصر بنيا على مرتفع. انظر: ناصر علي الحارثي، **المعجم الأثري لمنطقة مكة المكرمة**، ط١، الطائف، لجنة المطبوعات التنشيط السياحي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٨٠.

(١٢٢) لمزيد من المعلومات عن الزراعة في أحياء مكة خلال الفترة ما بين عامي ١٥١٧-١٩١٤م، انظر: الطبري، علي بن عبدالقادر، **الأرج المسكي في التاريخ المكي**، أشرف على تحقيقه سعيد عبدالفتاح، ط١، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٩٧-٩٨؛ السنجاري، **منائح الكرم**، ج٣، ص٣٤٨؛ الطبري، **تاريخ مكة**، ج١، ص٤٩٦؛ الجزيري، **الدرر الفرائد**، ج١، ص٥٣١؛ العياشي، **الرحلة العياشية**، ج١، ص٢٣٧؛ (عبدالمجيد بن علي الزبادي) المرادي (ت ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م)، **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، تحقيق محمد زينهم، ط١، القاهرة، الدار الثقافية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٨١؛ الجاسر، **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي**، ص١١٩؛ رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ص٦٣، ١٧٩؛ عادل غباشي، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني: دراسة حضارية**، ط١، مكة المكرمة، الأمانة العامة لمكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٣٠٠- ٣٠٤؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٦٢-٣٦٣.

(١٢٣) لمزيد من المعلومات عن الزراعة في القرى والوديان المحيطة بمكة خلال الفترة ما بين عامي ١٥١٧-١٩١٤م، انظر: أوليا جلبي، **الرحلة**=

يضاف إلى ما سبق أن المراد آبادي نفسه، قد أشار في مكان آخر من رحلته إلى أن بعض المناطق التابعة لشريف مكة، قد "يوجد في بقاع منها قليل من الزراعة وأشجار النخيل التي يسكن بجوارها قليل من الناس"(١٢٤).

وأما المشروعات المائية، التي تطرق لها المراد آبادي في رحلته، فقد وصف ما أسماه "نهر"، أو مشروع زبيدة، الذي هدف إلى تزويد سكان مكة والحجاج والمعتمرين فيها بمياه الشرب. وقد أنفقت زبيدة زوجة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) عليه، وتابعت إنجازه(١٢٥). وتم الاعتناء بالمشروع وتوسيعه وتطويره منذ ذلك التاريخ، حتى زمن الرحلة(١٢٦). فقد وصفه بأنه "نهر عظيم المنفعة، كبير الفائدة"، وأنه صدقة جارية، وذكرى عطرة لزبيدة زوجة هارون الرشيد(١٢٧).

= **الحجازية**، ترجمها عن التركية الصفصافي أحمد المرسي، ط١، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٦٣، ١٧٢؛ المرادي، **بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، ص٧٨؛ محمد الأمين المكي، **خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج**، ص١١٠-١١١؛ آل زيد، **تاريخ مكة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد**، ص٢٠٣-٢٠٦.

(١٢٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٣.

(١٢٥) المصدر السابق، ص٧٥. ولمزيد من المعلومات عن الخلفية التاريخية للمشروع، انظر: القطبي، **إعلام العلماء الأعلام**، ص٦٥-١٣٤؛ غباشي، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة**، ص١٤٧-٢٥٢، ٣٠٠-٣١٧.

(١٢٦) عن التطويرات والتحديثات التي أدخلت إلى المشروع. انظر: غباشي، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة**، ص٧٨-٨٢.

(١٢٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٥.

وينبغي التوقف عند عبارة المراد آبادي عن المشروع بأنه "نهر"، وهذا المصطلح غير دقيق، إذ ورد في نص الرحلة الأصلية، وكما هو معلوم بأن لا يوجد في مكة أنهار، وإنما مشروع مائي أو قناة مائية، كما تشير إلى ذلك المراجع التاريخية المتخصصة، وربما يعزا الأمر إلى عدم دقة في الترجمة(١٢٨).

كما تحدث المراد آبادي، عما سماه "نهر الخيف"، وهو نهر مغطى، يجري في المنطقة، حيث يسقي المزروعات فيها(١٢٩). وهنا أيضًا التسمية بنهر غير دقيقة، والدليل على ذلك إضافة إلى ما ذكر آنفًا بشأن عدم وجود أنهار في مكة، أن المراجع المتخصصة تشير إليه باسم "عين الخيف"(١٣٠).

وإنصافًا للمراد آبادي، فإن عين الخيف التي أشار إليها قد تحدثت عنها المراجع المتخصصة، وتحديدًا رسالة الدكتوراة القيمة التي قدمها عادل غباشي إلى جامعة أم القرى، بعنوان: "المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني: دراسة حضارية"؛ من ثم فإنها قيمة، على الرغم من عدم صحة المصطلح الذي استخدم في تسميتها(١٣١).

(١٢٨) غباشي، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة**، ص٧٨-٨٢؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٧٠-٣٧٢.

(١٢٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٣٦.

(١٣٠) محمد منصور هاشم آل سرور، **العيون في الحجاز وبعض أوديته**، ط١، الرياض، المؤلف، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١١٩. وعين الخيف: عين جارية حولها قرية كبيرة تعرف بقرية الخيف أو قرية الرواجحة. انظر: المرجع نفسه.

(١٣١) غباشي، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة**، ص١٤٢-٣٢٦؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٦٦-٣٧٥.

ب - الثروة الحيوانية:

تحدث المراد آبادي عن وجود الثروة الحيوانية في مكة المكرمة، ومن أبرزها الخيول، التي استخدمها الأشراف وجنودهم للأغراض العسكرية، إضافة إلى أنها وسيلة للتسلية، وإجراء المسابقات بينها في الأعياد. كما أشار إلى وجود الحمير، التي كانت تستخدم لأغراض مختلفة؛ منها حرث الأراضي الزراعية، ووسيلة للركوب والتنقل من مكان إلى آخر، وفي إجراء المسابقات بينها في الأعياد والاحتفالات(١٣٢).

ج - الأسواق التجارية والعاملون فيها:

قام الاقتصاد المكي على جملة من العناصر أشير إلى بعضها سابقًا، كالزراعة والثروة الحيوانية، إضافة إلى التجارة بنوعيها، الداخلية والخارجية؛ لذا كان من الطبيعي أن تقام الأسواق التجارية فيها؛ من أجل أن تتم عملية بيع السلع والمنتجات وشرائها.

وصف المراد آبادي في رحلته الأسواق التجارية في مكة المكرمة وصفًا دقيقًا، من حيث نشاطاتها وفاعليتها؛ لذا فقد وصفها بأنها "مملوءة بالرزق، والخيرات"، فيها فواكه من

(١٣٢) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٢-١٤٣. ولمزيد من المعلومات عن الثروة الحيوانية في الفترة التي سبقت البحث وبعدها. انظر: السنجاري، **منائح الكرم**، ج٤، ص١٣٩، ٣٤٧، ج٥، ص٢١٧- ٢١٨؛ جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص١٩١-١٩٣؛ **رحلة دومنغو باديا (علي باي العباسي)** إلى مكة، ص٢٥٩-٢٦١؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٦٣-٣٦٥.

جميع الأنواع والأقسام، ولاسيما العنب والرمان، والسفرجل والبطيخ، وهي موجودة بوفرة في كل وقت وزمان". ومصدرها الطائف والحجاز واليمن ومسقط[١٣٣].

وكان استهلاك أهل مكة من بعض أنواع الفاكهة، مثل البطيخ، على نطاق واسع، وهذا الأمر يمكن تفسيره بشدة ارتفاع درجة الحرارة في مكة، والبطيخ كما هو معروف يبرد جسم الإنسان، ومن ثم فإن الإقبال عليه كبير. فقد أورد المراد آبادي إحصائية مهمة مفادها أن سوق مكة، قد دخله في يوم من الأيام "مائة وخمسة وسبعون حمل بعير من البطيخ، وقد بيع البطيخ كله قبل حلول المساء، ولم يبق منه شيء"[١٣٤].

ولم تقتصر السلع والمنتجات في الأسواق المكية على ما ذكر سابقًا، بل اشتملت على سلع أخرى، فقد ذكر المراد آبادي الحبوب بأنواعها المختلفة، كالقمح والأرز، وكانا يستوردان من مصر والهند بصورة رئيسة. وقد شهد موسم الحج آنذاك انخفاضًا في أسعار الحبوب، حتى إن أهل مكة قالوا: "إنهم لم يشهدوا منذ عدة أعوام انخفاضًا في أسعار الحبوب، مثلما شهدوا هذا العام"[١٣٥]. وربما أن انخفاض تلك الأسعار مرده إلى أن الموسم الزراعي في البلدين المنتجين، وهما مصر والهند، كان وفيرًا، وكميات الأمطار جيدة؛ الأمر الذي أدى إلى إنتاج كميات كبيرة من تلك

(١٣٣) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٨-٧٩.

(١٣٤) المصدر السابق، ص٧٩.

(١٣٥) المصدر نفسه.

المحاصيل، ومن ثم انخفاض الأسعار فيهما[١٣٦]. كما أن المراد آبادي أكد المعلومات التاريخية التي وردت في المصادر التاريخية في العصور الإسلامية المختلفة، عن وجود الأسواق في مكة، وأنها تحتوي على مختلف أنواع السلع، لاسيما الأقمشة بأنواعها المختلفة والمجوهرات[١٣٧].

ووصف لنا المراد آبادي أسواق مكة في شهر رمضان المبارك، في أعقاب صلاة التراويح، بقوله: "بينما تفتح دكاكين مكة أبوابها إلى وقت السحور، أما القناديل فتظل مضيئة بشكل مثير، تجذب الزبائن إلى حيث المأكولات الجاهزة، والفواكه المصفوفة، فيعم الزحام على المحلات، ومن الملاحظ أن الأسواق والمحلات هنا تزدان في الأعياد والمناسبات، وتعج بالناس"[١٣٨].

(١٣٦) عن تجارة الحبوب بين الهند ومكة، انظر: بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد في مكة**، ص٧٦-٧٧؛ **رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة**، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ وعن التجارة نفسها مع مصر، انظر: حسام محمد عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٢٢١هـ/ ١٩٩٩م، ص١٣١.

(١٣٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٩. عن أسواق مكة التجارية في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، انظر: عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين: دراسة تحليلية**، ط١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٤٤-٢٥٠.

(١٣٨) المصدر السابق، ص١٤١، وعن ازدحام الأسواق في مكة في القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين، انظر: نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٢٥-٣٢٧.

ومن الأسواق المهمة التي أشار إليها المراد آبادي في رحلته إلى مكة سوق منى، وهو من الأسواق المؤقتة المرتبطة بقدوم الحجاج إلى منى للمبيت[١٣٩]، فذكر أنه يعج بالملابس الفاخرة، والهدايا الثمينة، والأواني النادرة، والفاكهة اللذيذة. وقد أبدى تعجبه واندهاشه مما وجده في السوق، حتى وصفه بأنه "من الصعوبة بمكان تخيله". وينقل لنا الرحالة أبياتًا من الشعر، لأحد الشعراء لم يذكر اسمه، في وصف هذا السوق بقوله[١٤٠]:

"تعالوا إلى منى، وانظروا إلى بهجة الأسواق

فما أشبه زحامها بزحام يوم القيامة

صمت الآذان من شدة الصخب

وارتفعت الأصوات هنا وهناك

انظروا إلى الدنانير اللامعة كأنها النار

إن حرارة سوق منى من لهيب تلك النار

وذكر المراد آبادي سوق النخاسة في مكة المكرمة، حيث يباع فيه العبيد والجواري الحبشيات، لكن دون إعطاء تفصيلات أخرى[١٤١]. وقد أشارت كتب الرحالة العرب

(١٣٩) منى: من المشاعر المقدسة في الحج، وأقربها إلى مكة، به الجمرات الثلاث، وبعض المساجد: كالجمرات الثلاث، ومسجد المرسلات، ومسجد الخيف. انظر: الحارثي، **المعجم الأثري لمنطقة مكة المكرمة**، ص٢٠٢.

(١٤٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٨٠؛ وعن هذا السوق في خلال رحلات المغاربة، انظر: العياشي، **الرحلة العياشية**، ج١، ص٢٤٧؛ نواب، **كتب الرحلات في المغرب**، ص٣٢٢-٣٢٣.

(١٤١) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٩.

والغربيين الذين زاروا مكة إلى وجود هذا السوق(١٤٢). ومما لا شك فيه أن المراد آبادي، في وصفه للأسواق التجارية في مكة، من حيث السلع والمنتجات التي تباع فيه، والحركة في تلك الأسواق، يؤكد ما ورد في الكتب التاريخية والرحلات والدراسات الحديثة التي تعرضت للموضوع.

ولعل من المعلومات المهمة جدًا التي تناولها المراد آبادي في رحلته، الفئات التي عملت في مجال التجارة المكية، ومن أبرزها البهرة، الذين يعودون في أصولهم إلى ولاية الكجرات(١٤٣) الهندية، وقد سموا بذلك الاسم بسبب احترافهم التجارة؛ حيث إن كلمة "بيوهار" في اللغة الهندية، تعني التجار، ويتكونون من طائفتين؛ الأولى أهل السنة والجماعة، "وأخلاق هؤلاء وعاداتهم وتقاليدهم موافقة للسنة النبوية"؛

الثانية هم الإسماعيلية الشيعة، وقد عملوا جميعًا في المهن والحرف المتنوعة وبالصناعة والتجارة، في مناطق مختلفة من الهند والحجاز(١٤٤).

(١٤٢) بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٧٤؛ سعد الله، **رحلة ليون روش إلى الحجاز**، ص٢٦٥؛ **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ص٩٣؛ البوزيدي، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة**، ص٥٢.

(١٤٣) الكجرات: منطقة تقع جنوب غرب الهند، تتمتع بموقع إستراتيجي، وهي من المناطق المهمة التي أقامت علاقات تجارية مع الحجاز. انظر: طناش، **تاريخ الصلات بين الحجاز والهند**، ص١٢٦.

(١٤٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٢٩- ٣٠؛ وعن طائفة الإسماعيلية الشيعة في مكة، انظر: بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١١٤- ١١٥.

قدم المراد آبادي معلومات مهمة عن نفوذ طائفة البهرة في التجارة الحجازية، عندما بين أن لهذه الطائفة تقليدًا عجيبًا، وهو تفكيرهم منذ وقت مبكر من إنجاب أطفالهم في رغبتهم بإرسالهم وهم صغار السن - قد يكونون في عامهم الثاني عشر أو الثالث عشر- إلى الحجاز "فيقومون هناك بخدمة الرؤساء والسادة، سواء كانوا من أقاربهم أو من الأغراب عنهم، وهم يقومون بخدمتهم بكل إخلاص وتفان، ويتعلمون خلال هذه المدة اللغة العربية، وفن التجارة". فإذا أظهروا ملامح النباهة والذكاء أعطوا قرضًا ماليًا، يسدد خلال عدة سنوات، ليصبح ذلك المبلغ رأس ماله، فيتاجر به؛ فلذلك برزوا في مجال التجارة[١٤٥]. لقد أكد المراد آبادي نفوذ البهرة التجاري في مكة، بقوله: "وأكثر تجار مكة من طائفة البهرة"، الذين قدموا من الهند[١٤٦].

ويُرجع بروز البهرة في مجال التجارة في الحرمين الشريفين في فترة القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، إلى جملة من العوامل من أهمها، وجود شبكة تجارية منظمة منهم تعمل على تنظيم العمل التجاري ما بين الهند والحجاز واليمن، مع وجود ظروف سياسية وتسهيلات مناسبة، للقيام بمثل تلك النشاطات. وقد أكد بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مكة خلال الفترة ما بين عامي ١٥١٧-١٩١٤م، تلك الحقيقة[١٤٧].

(١٤٥) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٣١.

(١٤٦) المصدر السابق، ص١٤٦.

(١٤٧) بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٧٧- ١٧٨؛ نعيم ريزفان، **الحج قبل مئة عام**، ط١، بيروت، دار تقريب المذاهب الإسلامية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٥٠.

وكان من بين الشخصيات الهندية التي برزت في مجال التجارة السيد عقيل، الذي وصفه، بأنه ذو "أتباع كثر، وأموال ظاهرة، فهو يكسب رزقه من التجارة"(١٤٨). وعندما زار الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت john Burckhardt مكة المكرمة عام١٢٣٠-١٢٣١هـ / ١٨١٤-١٨١٥م، وصفه بأنه "أحد كبار تجار مكة"(١٤٩).

كان من الطبيعي أن يركز المراد آبادي في حديثه عن التجارة المكية، على دور أبناء جلدته في ذلك المجال؛ لذلك قدم معلومات قيمة عنهم. كما أشار إلى وجود تجار في مكة من غير الهنود، كان من بينهم تاجر مصري، وصفه بأنه من ذوي"المال والجاه"(١٥٠).

د - الموارد المالية لشريف مكة المكرمة:

قدم المراد آبادي في رحلته معلومات مهمة جدًا عن الموارد المالية لشريف مكة، آنذاك الشريف سرور، وقد أشار إلى تعددها وتنوعها واختلافها من فترة إلى أخرى، وأهمها: حصوله على نصف الضرائب التي تجبى من ميناء جدة، بشكل عام، حيث وصفت بأنها كبيرة جدًا، ولا ينطبق هذا الأمر على البن، الذي كان يأتي من اليمن، إذ إن ضريبته بالكامل قد خصصت لشريف مكة، وكانت تزيد على مئتي

(١٤٨) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٨٦.

(١٤٩) بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٤٥.

(١٥٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٣٩. عن التجار والتجارة المصرية مع الحجاز في هذه الفترة، انظر: عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**.

ألف، دون تحديد نوعها. أما بقية البضائع، فقد كان الشريف يأخذ نصفها، فيما يوقف نصفها الثاني منها باسم السلطان العثماني للإنفاق على الحرمين الشريفين، ورواتب للعاملين والموظفين فيهما[١٥١]. كما أن جميع الضرائب التي تحصل من مينائي ينبع والقنفذة، قد خصصت للشريف[١٥٢].

يضاف إلى ما سبق، أن الشريف سرور كان يحصل على عشر المواشي والخيول التي تملكها القبائل العربية التي تسكن في المناطق المحيطة بالحجاز، وتحصيل هذا المصدر يعتمد على قوة الشريف، ففي حالة ضعفه كان يتوقف، ولكن حين "اعتلى الشريف سرور عرش السلطة، عاقب المتمردين، وبذل في ذلك كل جهد؛ حتى أطاعوه، وصاروا يعطونه ما كانوا يعطون الأشراف قبل ذلك"[١٥٣].

وللمكانة الدينية والسياسية التي تمتع بها الأشراف في مكة المكرمة[١٥٤]، فقد خصص للشريف سرور نسبة من الأموال التي كان يرسلها سلاطين الدولة العثمانية، أو حكام الأقطار الإسلامية في مصر وبلاد الشام والمغرب والهند، أو من أثريائهم من أجل الإنفاق على الحرمين الشريفين وعلى

(١٥١) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٠٠-١٠١، ١٤٣.

(١٥٢) المصدر السابق، ص١٤٣.

(١٥٣) المصدر نفسه.

(١٥٤) عن مكانة الأشراف في الدولة العثمانية، انظر: مراد صاريجك، **نقابة الأشراف في الدولة العثمانية**، ترجمة سهيل صابان، ط١، القاهرة، دار القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٠-٥٠.

العاملين فيهما(١٥٥). وكان سلاطين المغرب في فترات التاريخ الحديث المختلفة، قبل المراد آبادي وبعده، يرسلون هبات وأعطيات للإنفاق على الحرمين الشريفين وسكانهما، وفيما يتعلق بالمراد آبادي فقد ذكر أن سلطان المغرب، آنذاك، وهو المولى محمد بن عبدالله (١١٨٦-١٢٠٤هـ/ ١٧٧٤-١٧٨٩م)(١٥٦)، قد أرسل إلى الحجاز في عام (١٢٠١-١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧-١٧٨٨م) "مبلغًا كبيرًا من المال لأشراف الحجاز ولغيرهما"(١٥٧).

(١٥٥) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١١٩، ١٤٣. ولمزيد من المعلومات عن المخصصات المصرية للحجاز، انظر: محمد علي فهيم بيومي، **مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني في الفترة ٩٢٣-١٢٢٠هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م**، ط١، القاهرة، دار القاهرة للكتاب، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٠٧-٣١١؛ بيومي، وثائق الحرمين الشريفين في مصر من وقائع الصرة العثمانية الرومية ١٠٨٧-١٢٧٥هـ/ ١٦٢٦-١٨٥٨م، **مجلة الدارة**، ع٣، ١٤٢٥هـ، ص١٩٢؛ عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، ص٢٤٩-٣١٣؛ وعن مخصصات سلاطين المغرب للأشراف، انظر: عبدالخالق المفضل حمدون، الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبدالله محمد بن عبدالسلام بن ناصر الدرعي، **الرحلات إلى شبه جزيرة العرب**، ج٢، ص٢٠٦-٢٠٧.

(١٥٦) محمد بن عبدالله: يعد من أهم سلاطين المغرب، وكان من العلماء في مجال الشريعة، حيث ألف عددًا من الكتب الدينية، وكان يرسل بعضها إلى الحرمين، كما كان يرسل مساعدات مالية سنوية للإنفاق على الحرمين، انظر: المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١١٩؛ عبدالرحمن بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، ط١، تحقيق عبداللطيف الشاذلي، الرباط، المطبعة الملكية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٦٠-٧٧. ولمزيد من المعلومات عن الأعطيات المغربية إلى الحرمين الشريفين، انظر: رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحج سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، **مجلة العرب**، ج١١-١٢، س١٩، الجماديان ١٤٠٥هـ/ فبراير - مارس ١٩٨٥م، ص٧٣٦-٧٥٧.

(١٥٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٧.

كما خصص لشريف مكة نصيب محدد من المحاصيل الأرض الزراعية والبساتين الموجودة في الأودية المحيطة بمكة المكرمة، وتلك الموجودة في الطائف(١٥٨)، إلى جانب أن شريف مكة آنذاك، وهو الشريف سرور، كان يملك الأراضي الزراعية، التي تضم الخيول، حيث كان يزرع فيها المزروعات كافة، التي كانت تشكل مصدر دخل مالي له(١٥٩).

وعند مقارنة المعلومات السابقة، المتعلقة بمصادر الدخل المالي للأشراف، بالمعلومات التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة بما فيها كتب بعض الرحالة المسلمين والغربيين، الذين زاروا مكة في النصف خلال فترات التاريخ الحديث (١٥١٧-١٩١٤م)، يتضح أن المعلومات التي أوردها المراد آبادي هي مهمة وموسعة وشاملة لأغلب مصادر الدخل المالي لهم، مقارنة بالمعلومات التي وردت في المصادر الأخرى(١٦٠). كما تتضح أهمية معلومات المراد آبادي عند مقارنتها بما ورد

(١٥٨) المصدر السابق، ص١٤٣.

(١٥٩) المصدر نفسه. لمزيد من المعلومات عن الأرض الزراعية والبساتين التي يملكها الأشراف، انظر: الطبري، **الأرج المسكي في التاريخ المكي**، ص٩٧-٩٨؛ رفعت، **مرآة الحرمين**، ج١، ص١٩٦؛ بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٦٦.

(١٦٠) **مراسلات الباب العالي إلى ولاية الحجاز(مكة المكرمة- المدينة المنورة)، في الفترة من ١٢٨٣-١٢٩١هـ**، ترجمة وتعليق سهيل صابان، مكة المكرمة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - فرع مكة المكرمة والمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٥٠-٥١، ١٨٤، ١٩٠-١٩١، ٢٢٨؛ رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٧٣-٧٥؛ بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٦٥-٢٦٦؛ ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص١٣٠.

من معلومات في الرسائل الجامعية، التي اعتمدت بعض الوثائق العثمانية، حيث يتبين أنها شاملة ودقيقة، ومن ثم يعول عليها كثيرًا في هذا المجال(١٦١).

هـ - الأوقاف والصدقات والمرتبات لأهل مكة:

تطرق المراد آبادي في رحلته إلى جملة من الموضوعات الاقتصادية، غير التي ذكرت آنفًا، من بينها الأوقاف التي خصص ريعها للحرمين الشريفين، والصدقات التي تنفق عليهما وعلى القاطنين فيهما، إضافة إلى المرتبات التي تم تخصيصها لبعض الفئات في مكة.

ففيما يتعلق بالأوقاف، وهي الأموال، أو المشاريع والمحلات التي يخصص ريعها للإنفاق على مشاريع خيرية في الحرمين كالمدارس، والمساجد، والأربطة، والمستشفيات، أو العاملين في تلك الجهات، كالمدرسين، والمفتين، والأئمة، يقول المراد آبادي: "وما يقدم لإنشاء المستشفيات وتأسيس المدارس والمساجد، والرباطات، والخانقاهات، التي أوقفها حكام المسلمين وسلاطينهم على الحرمين الشريفين، في بلاد مصر وبعض أعمال الشام أملاك موقوفة على الحرمين الشريفين من قبل سلطان الروم (الدولة العثمانية)...، فما يصل منها إلى الحرمين، ويصرف على الخدم الدائمين وعلى المؤذنين والمدرسين والقضاة وغيرهم من سكان الحرم، وكذلك ما يصرف على الفرش والقناديل والمصابيح، مبلغ كبير جدًا... وقد قام مندوبو الخليفة عن ديار مصر بعد حج هذا العام -

(١٦١) بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد في مكة**، ص٨٤-٩٢.

ولعدة أيام - بتقسيم الرواتب على خدام الحرم الشريف، ما عدا المؤذنين والمكبرين والأئمة، ويشاهد لدى هؤلاء المصريين كل يوم كومة من الذهب يقسمونها بين النساء"(١٦٢).

وبتحليل النص السابق يتضح أن الأوقاف التي خصصت للحرمين الشريفين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي عامة، ومصر وبلاد الشام وبلاد المغرب خاصة، كانت كبيرة وكثيرة، وتنفق على مجالات شتى في الحرمين الشريفين، بحيث تشمل قطاعات متعددة، أبرزها: العاملون في الحرمين والخدمات فيهما، وفقراؤهما، ومؤسساتهما الدينية والتعليمية والصحية. ولكن المراد آبادي لم يكن موفقًا عندما قال: "فجميع بلاد مصر" كانت موقوفة على الحرمين، وهذا الأمر تنقصه الدقة، فالمصادر المتخصصة في مجال الأوقاف المصرية على الحرمين، لا تؤيد ذلك، لكنها تشير صراحة إلى أنها كانت كبيرة جدًا، وليست جل مصر(١٦٣).

وفي مجال الصدقات التي خصصت للإنفاق على سكان الحرمين، فقد أولى المراد آبادي، موضوع الصدقات الهندية عناية خاصة، لأنه من أهل الهند، وعلى معرفة ودراية بها، فيشير إلى أن بعض أمراء وحكام الهند من المسلمين،

(١٦٢) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٥-٧٦. عن الأوقاف المصرية على الحرمين، انظر: بيومي، **مخصصات الحرمين الشريفين**، ص٥٦-١٣٢؛ عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، ص٢٧٥-٣١٢.

(١٦٣) لمزيد من المعلومات، انظر: بيومي، **مخصصات الحرمين الشريفين في مصر**، ص٥٦-١٣٢؛ بيومي، **وثائق الحرمين الشريفين في مصر**، ص١٩٢؛ عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، ص٢٧٥-٣١٢.

يهتمون بأمر الحجاج المسلمين، إذ إنهم خصصوا لهم ثلاث سفن لنقلها إلى الحرمين الشريفين من ناحية، وحرصهم من ناحية أخرى على إرسال الصدقات السنوية لأهلهما والفقراء فيهما، بهدف نيل الأجر والثواب من الله عز وجل(١٦٤).

وأما الرواتب المخصصة للإنفاق على القبائل البدوية القاطنة حول الحرمين، فقد بين المراد آبادي، أن الدولة العثمانية نفسها، أو مصر نيابة عنها، كانت ترسل الأموال السنوية، لتكون بمثابة رواتب مقررة لتلك القبائل، ووصفها بأنها "مقدرة لهم مقابل قيامهم بالحفاظ على سلامة الحجاج المسافرين عبر هذا الطريق"، أي الطريق المؤدي إلى الحجاز. كما أن سلاطين المغرب، دأبوا على إرسال الأموال للبدو "الذين يسكنون منطقة الحرمين، والذين يسكنون المنطقة الممتدة من الحرمين حتى اليمن"(١٦٥). وتكمن أهمية المعلومات السابقة التي أوردها المراد آبادي عن المبالغ المالية التي تنفق على القبائل البدوية في أنها جاءت لتؤكد ما أوردته المصادر التاريخية بهذا الشأن(١٦٦).

(١٦٤) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٧-٧٨.

(١٦٥) المصدر السابق، ص٧٦-٧٧.

(١٦٦) لمزيد من المعلومات حول الأموال التي تمنح للقبائل مقابل حماية طرق الحج والتجارة، انظر: الجزيري، **الدرر الفرائد**، ج١، ص٩٦٢-٩٩٦؛ رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٧٣-٧٥؛ **مراسلات الباب العالي إلى ولاية الحجاز**، ص٥٠، ٥١، ١٥٩؛ بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد في مكة**، ص١١٧-١٢٤.

و - النقود:

أشار المراد آبادي في أثناء رحلته إلى مكة المكرمة إلى أنواع النقود المستخدمة في عمليات البيع والشراء، ودفع الأجور، والخدمات المقدمة للسكان عامة، والحجاج خاصة؛ وقد اتصفت بالتعدد والتنوع، وهذا يعزا بصورة رئيسة إلى أن حجاج بيت الله الحرام قد قدموا من مختلف أقطار العالم الإسلامي؛ ومن ثم فهم يستخدمون نقودًا مختلفة. وأشار إلى نوعين من العملة، هما: النقود الفضية، والنقود الذهبية.

١ - النقود الفضية:

أشار المراد آبادي إلى عدد من العملات الفضية التي كانت مستخدمة في مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، منها:

- القرش: يذكر المراد آبادي أن القرش عملة محلية كانت متداولة فقط في الحرمين الشريفين، وكان يساوي آنذاك في مكة ٣٢ ديوانيًا[١٦٧]، وهي عملة البيع والشراء بين

(١٦٧) المصدر السابق، ص١٤٤. والقرش: كلمة أصلها لاتينية، ثم دخلت إلى الألمانية، وبعدها إلى اللغة العربية، وهي عملة فضية، يساوي القرش الواحد منها ٤٠ بارة عثمانية. لمزيد من المعلومات عن تطور عملة القرش، انظر: مصطفى أوزتورك، الملامح العامة لتاريخ السكة العثمانية، ترجمة سيد محمد السيد محمود، في: سيد محمد السيد محمود، **النقود العثمانية: تاريخها، تطورها، مشكلاتها**، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٧؛ نزيهي شوقي آيقوت، المسكوكات العثمانية، ترجمة سيد محمد السيد محمود، في: محمود، **النقود العثمانية**، ص١٢٥-١٢٦؛ أحمد الصاوي، **النقود المتداولة في مصر العثمانية**، ط١، القاهرة، مركز الحضارة العربية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٩٤-٩٥.

الناس في التعاملات الصغيرة[١٦٨]، ومن أجزاء القرش: الديواني: وهو عملة فضية مخلوطة بالمعادن، وهي على نوعين: الأولى، يطلق عليها اسم "الديواني الكبير"؛ لكبر حجمها. والثانية أطلق عليها اسم "الديواني الصغير"، وحجمها أصغر من الأولى، وأربعة من الكبيرة، تساوي خمسة من الصغيرة[١٦٩]. والقمري: أشار إليها المراد آبادي بأنها من العملات المستخدمة في مكة المكرمة، وأنها تساوي سبعة عشر ديوانيًا ونصف الديواني، وهي من العملات التي ضربتها الدولة العثمانية[١٧٠].

- الروبية: من أهم العملات الفضية المستخدمة لدى الهنود في الحرمين الشريفين، وقد أشار إليها المراد آبادي في رحلته إلى مكة المكرمة، لكن دون إعطاء تفصيلات كثيرة عنها، واكتفى بذكر أن الريال الأجنبي يساوي روبيتين ونصف[١٧١].

- الدرهم المغربي: من العملات الفضية المستخدمة في الحرمين الشريفين، وقد شاهدها المراد آبادي، وقد لاحظ

(١٦٨) شوكت باموك، **التاريخ المالي للدولة العثمانية**، ترجمة عبداللطيف الحارس، بيروت، دار المدى الإسلامي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٣٣؛ أوزتورك، **الملامح العامة لتاريخ السكة العثمانية**، ص٤٧.

(١٦٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٥؛ يشير بوركهارت إلى أن الديوانية هي البارة العثمانية، انظر: بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٢٣؛ الزهراني، **ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة**، ص٦٦٧.

(١٧٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٤.

(١٧١) المصدر السابق، ص٧٨-٧٩، ١٤٤.

أنه قد نقش على أحد وجهيها الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[١٧٢].

- الريال: وهو عملة من العملات الفضية السائدة في الحجاز، وكان يساوي في مكة ثلاثة قروش وثلاثة أرباع القرش، أي مئة وعشرين ديوانيًا. وهو على عدة فئات، منها: ريال واحد، ونصف ريال، وربع الريال[١٧٣]. والريال هو عملة أجنبية، وليست عثمانية، وقد تكون نمساوية، أو فرنسية، أو إسبانية[١٧٤]. ومما يؤيد ذلك أن الريال لم يسكّ في مصر إلا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي[١٧٥]. يضاف إلى ذلك أن الريالات الأجنبية كانت متداولة في الحجاز في القرن الأخير[١٧٦].

(١٧٢) سورة التوبة، الآية ٣٤. المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٨. أشار عمر أفا أنه لم تذكر أجزاؤه أو مضاعفاته، والدراهم الشائعة مختلفة الوزن، بسبب السياسة النقدية التي كانت تتخذ من قبل الدولة. انظر: عمر أفا، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر: أنظمتها وأوزانها في منطقة السوس**، ط١، الدار البيضاء، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٤.

(١٧٣) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٤.

(١٧٤) الصاوي، **النقود المتداولة في مصر العثمانية**، ص١٠٢؛ أفا، النقود المغربية، ص٦٣؛ عمر أفا، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر: سوس ١٨٢٢-١٩٠٦م**، ط١، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٢٣.

(١٧٥) الصاوي، **النقود المتداولة في مصر العثمانية**، ص١٠٢؛ آل زيد، **تاريخ مكة المكرمة**، ص١٧٦-١٧٧.

(١٧٦) محمد صادق باشا، **نبذة في استكشاف الأرض الحجازية**، إستانبول، مطبعة عموم أركان حرب، ١٢٩٤هـ، ص١٩؛ حمد محمد القحطاني، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز ١٢٩٧-١٣٣٣هـ/ ١٨٨٠-١٩٠٥م**، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٥٠، ١٥١.

يلاحظ مما سبق أن النقود الفضية المستخدمة في مكة المكرمة، خلال رحلة المراد آبادي، متنوعة، بعضها عثماني - مصري، وبعضها الآخر عملات تستخدم في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

٢ - النقود الذهبية:

أورد المراد آبادي معلومات مهمة أيضًا، عن النقود الذهبية التي كانت مستخدمة في مكة المكرمة، وحصرها في ثلاث عملات رئيسة، هي:

- المحبوب: ذكر المراد آبادي بأنها من العملات الذهبية المستخدمة في مكة، وأنها على نوعين، الأولى: سكت في القسطنطينية، وهي تساوي خمسة قروش، والثانية: سكت في مصر، وتساوي خمسة قروش(١٧٧). وعند مقارنة تلك المعلومات بما ورد في الوثائق والدراسات العلمية المتخصصة، تتضح دقتها(١٧٨).
- الدينار الإسماعيلي: من العملات التي استخدمت في أثناء رحلة المراد آبادي إلى الحجاز، وكان يساوي روبيتين هنديتين(١٧٩).

(١٧٧) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٤.

(١٧٨) أوزتورك، **الملامح العامة لتاريخ السكة العثمانية**، ص٤٩؛ الصاوي، **النقود المتداولة في مصر العثمانية**، ص٣٦-٣٧، ٧١-٧٣.

(١٧٩) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١١٩. وينسب "الدينار الإسماعيلي: إلى السلطان مولاي إسماعيل العلوي، ويسمى أيضًا بـ مثقال "سكة أبو أواق". انظر: أفا، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر**، ص٤٩، ٦٢.

- المشخص: عملة ذهبية، كانت تساوي في مكة في أثناء إقامة المراد آبادي في مكة ثمانية قروش، وقد وصفها بأنها "منقوش عليها صورة مع حروف بالإنجليزية، وسبب رواج هذه العملة في البلاد الإسلامية هو زيادة التبادل التجاري مع النصارى الإنجليز"، كما أن ضريبة الجزية التي يدفعها أهل الذمة (اليهود والنصارى) إلى الدولة العثمانية كانت بتلك النقود[١٨٠]. ويتضح من النص السابق أن عملة المشخص، هي الجنيه الإنجليزي الذهبي، وليس بالفرنك الفرنسي، كما أشارت إلى ذلك إحدى الدراسات[١٨١].

وبعد مقارنة المعلومات التي أوردها المراد آبادي عن النقود المستخدمة في مكة المكرمة في أثناء رحلته إلى الحجاز، بما ورد من معلومات في كتب التاريخ المتخصصة بمكة المكرمة في الفترة ما بين عامي ١٥١٧-١٩١٤م، يتضح أن معلومات المراد آبادي واسعة وشاملة ومهمة، ولا يستغنى عنها في ذلك المجال[١٨٢].

---

(١٨٠) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص١٤٤.

(١٨١) نوال سراج شوشة، **الحجاز تحت حكم محمد علي ١٢٢٦-١٢٥٦هـ/ ١٨١١-١٨٤٠م**، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٢٠٠.

(١٨٢) من كتب الرحلات التي تناولت موضوع النقود في مكة: بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ص٢٢٢-٢٢٣؛ **رحلة دومنجو دي باديا(علي باي العباسي) إلى مكة**، ص٢٢٤؛ وفيما يتعلق بالدراسات العلمية المتخصصة، انظر: ضيف الله الزهراني وعادل محمد غباشي، **تاريخ مكة التجاري**، ط١، مكة المكرمة، الغرفة التجارية الصناعية بمكة المكرمة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٠٤-١٠٥؛ آل زيد، **تاريخ مكة المكرمة**، ص١٧٢-١٧٨؛ بشاوري، **إمارة الشريف غالب بن مساعد**، ص٨٠-٨٢.

وكان المراد آبادي، بخبرته التي اكتسبها في أثناء رحلته إلى الحجاز، قد أبدى بعض الملحوظات النقدية في المجال الاقتصادي، لعل من أهمها: انتقاده لسلاطين الدولة العثمانية، لأنهم "قد قصروا هذه الأيام في أداء منافع الوقف كاملة إلى الحرمين الشريفين"(١٨٣)، الأمر الذي يشعر بتقصير سلاطين الدولة العثمانية في القيام بواجباتهم تجاه الأوقاف. كما وجه انتقادًا لاذعًا وشديد اللهجة لأمراء الهند وحكامها المسلمين الذين قصروا تجاه الحرمين الشريفين، بقوله: "والأمراء والحكام الذين لم يتعلموا شيئًا من الإنفاق في الخير، ولم يدرسوا من نحو الخير شيئًا إلا مسألة ما لا ينصرف، ما زالوا يجمعون الروبيات ويكنزونها، وسوف تزول شوكتهم، وينتهي أمرهم لا محالة..."(١٨٤).

(١٨٣) المراد آبادي، **الرحلة الهندية**، ص٧٦.

(١٨٤) المصدر السابق، ص٧٨.

الخاتمة:

تعد رحلة المراد آبادي "الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية"، في عامي ١٢٠١-١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧- ١٧٨٨م، من أهم الرحلات الإسلامية والغربية إلى مكة المكرمة في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي.

وتكمن أهمية الرحلة في جملة من العوامل، من أهمها: أن الرحالة عالم مسلم، على درجة علمية عالية، إذ إنه تخصص في مجال العلوم الشرعية، وبرز فيها من خلال تأليفه مجموعة من الكتب في ذلك المجال، يضاف إلى ذلك إتقانه بعض اللغات: الأردية، والفارسية، والعربية. كما كان على علم ودراية في مجال التاريخ، فقد قرأ وطالع عددًا من كتبها؛ سواء كان منها العام، أو الخاص المتعلق بتاريخ مكة المكرمة؛ لذلك كانت معلوماته التاريخية في أغلب الأحيان موثوقًا بها في ذلك المجال.

كما تنوعت مصادر المعلومات التي اعتمد عليها المراد آبادي في حديثه عن بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تناولها في رحلته إلى مكة المكرمة، فاشتملت على المشاهدات العينية، والأسئلة والاستفسارات، والمناقشات والمحاورات، والإفادة من الكتب والمخطوطات؛ الأمر الذي كان من شأنه، أن يثري تلك الجوانب، ويقدم معلومات مميزة بهذا الشأن.

لقد تميزت المعلومات الاجتماعية والاقتصادية التي أوردها المراد آبادي في رحلته، بأنها مهمة جدًا، ومفيدة؛ ويعزا ذلك

إلى عوامل أخرى غير التي ذكرت؛ منها: شاملة ومتنوعة، وتغطي جوانب اجتماعية واقتصادية، بعضها لم يرد تفاصيله في المصادر التاريخية المختلفة التي تناولت تاريخ مكة المكرمة في فترة التاريخ الحديث ١٥١٧-١٩١٤م، مثل: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسكان مكة المكرمة، وحجاج بيت الله الحرام عامة، والهنود خاصة؛ لأنه من أبناء جلدتهم، وعلى معرفة ودراية بهم، إذ قدم وصفًا مميزًا لنشاطاتهم المختلفة؛ الاجتماعية والاقتصادية منها. كما قدم معلومات مميزة عن العادات والتقاليد المكية في حالة تعيين شريف جديد على مكة، أو نعي من وافته المنية منهم، أو الاحتفال بليلة النصف من شعبان. كما أنه توسع وأضاف كثيرًا من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية التي وردت عند الرحالة المسلمين والأجانب منهم، كالنقود المستخدمة في مكة، والموارد المالية لأشراف مكة، وفتح أبواب الكعبة للناس للدخول إليها، والصلاة في الحرم المكي جماعة، وفق المذاهب الإسلامية.

ويمكن القول بأن بعض المعلومات التي ذكرها المراد آبادي، كانت على درجة من الأهمية، بحيث لم يرد ما يماثلها في الدراسات والرسائل العلمية الجامعية في وقتنا الحاضر، ومن ثم فإن الرحلة تعد مصدرًا مهمة جدًا لدراسة تاريخ مكة المكرمة، لا يمكن الاستغناء عنه.

وبرزت شخصية المراد آبادي في الرحلة، وأبدى انتقاده لبعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية في مكة؛ ففي المجال

الأول، انتقد بعض السلوكيات التي مارسها البدو، إضافة إلى انتقاده لعادة ختان الأولاد وهم في سن البلوغ. وفي المجال الثاني، ركز على تقصير سلاطين الدولة العثمانية في مجال الأوقاف، وتقصير أمراء الهند وحكامها من المسلمين في مجال الإنفاق على الحرمين الشريفين.

وعلى الرغم من بعض الهنات والهفوات التي وقع فيها المراد آبادي مثل التعميم أحيانًا، وقلة الدقة في وصف المصطلحات في ثنايا البحث، وعدم تطرقه لبعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في مكة المكرمة، فإن ذلك لا يقلل البتة من أهميتها وقيمتها العلمية.